موسوعة القيم ومكارم الأخلاق العربية والإسلامية

(٢٧)

السِّدْر

الباحث الرئيسي ورئيس الفريق العلمي
أ.د. مرزوق بن صنيتان بن تنباك

www.mtenback.com

دار رواح للنشر والتوزيع

ⓒ مرزوق بن صنيتان بن تنباك ، ١٤٢١ هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

موسوعة القيم ومكارم الأخلاق العربية والإسلامية/مرزوق بن صنيتان بن تنباك ... [أخ]. الرياض.

٥٢ ج ؛ ١٧×٢٤ سم

ردمك : ٤-١٨٥-٣٨-٩٩٦٠ (مجموعة)

٥-٢١٢-٣٨-٩٩٦٠ (ج ٢٧)

١- الأدب العربي – موسوعات أ- ابن تنباك ، مرزوق بن صنيتان (م . مشارك)

ديوي ٨١٠,٣ ٢١/٢٠٧٨

رقم الإيداع : ٢١/٢٠٧٨

ردمك : ٤-١٨٥-٣٨-٩٩٦٠ (مجموعة)

٥-٢١٢-٣٨-٩٩٦٠ (ج ٢٧)

موقع الدكتور مرزوق بن تنباك
www.mtenback.com

www.mtenback.com

فهرس المحتويات

الموضـــوع	الصفحة
توطئة	٥
السر لغةً	٧
السر اصطلاحًا	١٠
من صفات السرّ وأحواله	١١
محاسن الكتمان وفضائله	٢٣
أنواع الستر المحمودة	٢٨
الوجه السلبي للسر	٤٣
من أنواع الستر والأسرار المذمومة	٤٨
ستر الفضل والنعمة	٥٣
طلب الناس للسر	٥٥
المرأة والسر	٥٨
من يكشف سره	٦٢
المؤهل لأن يستودع السر	٦٦
الأخلاق والسر	٧٢
عقوبة مفشي السر	٨١
أهمية كتمان السر في حياة الأفراد والأمة	٨٥
كتمان السر بصفته هدفًا تربويًا ومكونًا شخصيًا	٨٩
الفهارس	٩٧

www.mtenback.com
موقع الدكتور مرزوق بن تنباك

فَإِذَا رُزِقْتَ خَلِيقَةً مَحْمُودَةً فَقَدِ اصْطَفَاكَ مُقَسِّمُ الأَرْزَاقِ

فَالنَّاسُ هَذَا حَظُّهُ مَالٌ وَذَا عِلْمٌ وَذَاكَ مَكَارِمُ الأَخْلَاقِ

حَافِظ إِبْرَاهِيم

موقع الدكتور مرتضى بن زناك
www.mtenback.com

توطئة

«السر وكتمانه» كلمتان تستدعيان في النفس مشاعر متنوعة، وتحركان فيها معاني وخواطر تجمع ما بين الطرافة والإمتاع والفضول وحبّ الاستطلاع، إلى جانب الإحساس الغامض بالقلق والتوتر. لأنّ كلاً منّا سيراجع، عند ذلك، طائفة من أسراره الغافية في صدره، ويَرْبِت عليها بأمانٍ وسكينة، مطمئنًا على نومها الهادئ في مستقرّ أمين، وحِرزٍ مكين.

وبقدر ما يحرص الإنسان الحكيم على صون أسراره الخاصة، بعيدًا عن مسامع الفضوليين وعيون الرقباء، نجد أن الناس دائمًا، في أصقاع الأرض وعبر الزمان، يلَذّ لهم أنْ يطلعوا على أسرار غيرهم، وكثيرٌ منهم لا يتكلف عناء الشعور بتأنيب الضمير والإحساس بالذنب، إذا ما تجَسّس على الأسرار، وهتك الأستار؛ لأن الواحد منهم يرى أنه لا ضير مِن علمه هو بخصوصيات الآخرين، لكنّ الخطر كلَّ الخطر، في اطّلاع الآخرين على أسراره المشابهة لتلك الأسرار التي سمح لنفسه باستقصائها والاستخبار عنها!

لا ريب أن الحديث عن السرّ وكتمانه موضوعٌ خطير، لأنه يتعلق بحياة الناس في كل زمان ومكان، ويمسّ صميم مصالحهم الماديّة والمعنوية. ولعلّ حياة إنسان كُشِف سِتْره فذاق ألوانًا من المذلة والهوان في نفسه ومحيطه الاجتماعي؛ كان خيرًا منها موتٌ مريح ينقله إلى رحاب عالمٍ بعيدٍ عن ظلم الإنسان وأنانيّته..

من أجل هذا، كان الكلام في السرّ مبحثًا أخلاقيًا واجتماعيًا يستحق دراسة مستفيضةً تشمل الموضوع من سائر أطرافه وجوانبه الدينية والأدبية والنفسية والفلسفية.

وحتى يستقيم للبحث مسارُه العلمي الصحيح، يجدر بنا الرجوع إلى معاجم العربية لنضبط معاني المصطلحات المتعلقة بالموضوع، مستخلصين منها ما يهمّنا تحديده للمعنى المقصود الذي نريده.

www.mtenback.com

موقع الدكتور مرزوق بن تنباك
www.mtenback.com

www.mtenback.com

السر لغة:

السّتْر، والكِتْمان، والكَشْف، والإفْشاء، والفَضْح، والحَجْب. وسنعرض ما يلزمنا من معانيها، بإيجاز، حسبما ذكرت على الترتيب[1]:

سَرَّه، سروراً ومَسَرَّةً: أي كَتَمه وأخفاه. وسَرَرْتُه: أعْلَنْتُهُ وأظهرتُه، لأن اللفظ من الأضداد وبهما فُسِّر قوله تعالى: ﴿وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ﴾[2]. والسِّرّ: ما يُكْتَم في النفس من الحديث، وما يُخْفَى والسريرة: عمل السِّر من خير أو شرّ.

وأسرَّ الشيء: أخفاه، وأسرَّ إليه حديثًا: أفضى به إليه خُفْيَة، قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَسَرَّ النَّبِيُّ إِلَى بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا﴾[3]. والإسْرار: خلاف الإعلان، قال تعالى: ﴿يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾[4].

واسْتَسرّوا: أي استتروا. واستسرّ الأمر: خَفِي.

---

[1] رجعنا في ذلك إلى المصادر التالية:

- الزبيدي، السيد محمد مرتضى الحسيني: تاج العروس من جواهر القاموس، الكويت، وزارة الإرشاد والأنباء في الكويت.
- ابن منظور، محمد بن مكرم: لسان العرب، بيروت، دار صادر، بيروت، (د.ت).
- الجوهري، إسماعيل بن حمّاد: تاج اللغة وصحاح العربية، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار، مطابع دار الكتاب العربي بمصر، (١٣٧٧هـ).
- الراغب الأصفهاني، الحسين بن محمد، أبو القاسم: المفردات في غريب القرآن، تحقيق وضبط: محمد سيد كيلاني، القاهرة، شركة ومكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر، (١٣٨١هـ/١٩٦١م).

[2] سورة يونس: ٥٤.

[3] سورة التحريم: ٣.

[4] سورة النحل: ٢٣.

www.mtenback.com

ويطلق السرّ مجازًا على معان منها: الجماع والنكاح أو ما يدور حولهما، وجوفُ كلِّ شيءٍ ولُبُّهُ. سَتَر الشيءَ، يَستُرُه، سَتْرًا، وسَتَرًا: أي أخفاه. والسِّرْ: ما يُستَر به. وهتك الله سِتْره: أطلع على معايبه. ومن المجاز: السِّتْر: الخوف، والحياء. يقال: ما لفلان سِتْر ولا حِجْر. والسِّتير: الذي من شأنه وإرادته حب السَتر والصون، وفي الحديث الشريف: «إنّ الله حييٌّ ستّير»[٥]. والاستتار: الاختفاء. قال تعالى: ﴿وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلا أَبصَارُكُمْ﴾[٦].

ومن معانيه الكتمان كَتَمَ السِّقاءُ: أمسك ما فيه من اللبن. والكِتمان: نقيض الإعلان، وسَتْرُ الحديث قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهَادَةً عِندَهُ مِنَ اللَّهِ﴾[٧]. والكَتْم أيضًا: ما يُخْضَب به الشعر وذلك لأنه يكتم البياض ويخفيه.

كاتَمتْه العداوة: ساتَرتْه، واستكتَمَه الخبرَ والسرّ: سأله كَتْمَه، ورجلٌ كُتَمَةٌ: إذا كان يكتُم سرّه.

ومن معانيه الحجاب وحَجَبَهُ، يَحْجُبُه، حَجبًا وحُجَابًا: ستره، والحجاب: السِّتْر، وكلُّ شيءٍ مَنَع شيئًا فقد حجبه، والحجاب: المنع من الوصول. وفي الحديث: «إن الله يغفر لعبده ما لم يقع الحجاب، قالوا: يا رسول الله، وما الحجاب؟ قال: أن تموت النفس وهي مُشْرِكة...»[٨] كأنها حُجِبَتْ بالموت عن الإيمان.

---

[٥] الحديث ورد في: السجستاني، سليمان بن الأشعث، أبو داود: سنن أبي داود، بشرح الخطابي، إعداد وتعليق: عزت عبيد الدعاس وعادل السيد حمص، دار الحديث، ط١، (١٣٩٤هـ/ ١٩٧٤م)، الحديث رقم (٤٠١٢)، ج٤ ص ٣٠٢.

[٦] سورة فُصِّلَتْ: ٢٢.

[٧] سورة البقرة: ١٤٠.

[٨] ورد في المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوي: ج٦، ص٢٨٧، وعزاه إلى مسند أحمد: ج٥، ص١٧٤.

www.mtenback.com

وامرأة محجوبة ومُحَجَّبَة: قد سُتِرَتْ، قال تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ﴾[٩].

فهذا مُجمل ما تدور حوله مصطلحات البحث، من معانٍ في إطار «السرّ وكتمانه» بصفته موضوعًا أخلاقيًا واجتماعيًا. وليست هذه - كما ذكرنا - كلّ الألفاظ التي تخصّه في اللغة، فنحن لا نغفل عن مثل ما ذكره التوحيدي من أنّ الغَفْرَ في اللغة هو الغطاء، والأصل التغطية، فإذا قلتَ: غفر الله لك، فكأنك قلت: «سترَ الله عليك ذنوبك»،[١٠] ومثله ما ذكر المبرّد في تفسير قوله تعالى: ﴿كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ﴾[١١] أنّ [المكنون: المصون والمُكَنّ: المستور، يقال: أكننتُ السرّ،[١٢] قال الله عزّ وجل: ﴿أَوْ أَكْنَنتُمْ فِي أَنفُسِكُمْ﴾[١٣]]. كما أن الكفر في اللغة هو السّتْر والتغطية، ويسمى الليل كافرًا لأنه يغطي كل شيء، والكافر: الزارع، قال تعالى: ﴿كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ﴾[١٤] يعني الزُّرّاع، سُمُّوا «كُفّارًا» لأنهم يغطون الحَبّ، والكُفر في الشرع نقيض الإيمان. وهو إنكار شيء مما جاء به ﷺ، ووصل إلينا بطريق يقينيّ قاطع..[١٥].

---

[٩] سورة المطففين: ١٥.

[١٠] التوحيدي، أبو حيان: البصائر والذخائر: د. وداد القاضي، بيروت، دار صادر، ط١، (١٤٠٨هـ/١٩٨٨م)، ج٦، ص٢٤٩.

[١١] سورة الصافات، ٤٩.

[١٢] المبرّد، محمد بن يزيد، أبو العباس: الكامل في اللغة والأدب والنحو والتصريف، تحقيق: زكي مبارك، القاهرة، شركة ومكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر، ط١، (١٣٥٥هـ/١٩٣٦م)، ج١ ص٢٥٤.

[١٣] سورة البقرة: ٢٣٥.

[١٤] سورة الحديد: ٢٠.

[١٥] البيانوني، أحمد عز الدين: الكفر والمكفرات، حلب، مكتبة الهدى، (١٣٩٥هـ/١٩٧٥م)، انظر ص٦.

www.mtenback.com

السر اصطلاحًا

وإذا جاوزنا معاجم اللغة غير بعيد، فقرأنا مفهوم السرّ عند الزهّاد والعُبّاد، وجدنا أن للسر مصطلحًا خاصًا عندهم، اعتنوا به، ودلّلوا به على ما ينسجم ورؤيتهم الصوفية للكون ومفرداته. يقول صاحب الرسالة القشيرية في تعريفه للسرّ: «يُحتمل أنها لطيفة مودَعة في القالب كالأرواح، وأصولهم تقتضي أنها محلّ المشاهدة، كما أنّ الأرواح محلٌّ للمحبة والقلوب محلٌّ للمعارف، وقالوا: السرّ مالَكَ عليه إشراف، وسرّ السرّ ما لا اطلاع عليه لغير الحق، وعند القوم على موجب مواصفاتهم ومقتضى أصولهم السرّ ألطف من الروح، والروح أشرف من القلب. ويقولون: الأسرار مُعتقةٌ عن رقّ الأغيار من الآثار والإطلاق. ويطلق لفظ السرّ على ما يكون مصونًا مكتومًا بين العبد والحق سبحانه في الأحوال، وعليه يُحمل قول من قال: أسرارنا بِكرٌ لم يفتضّها وهم واهم، ويقولون: صدور الأحرار قبور الأسرار. وقالوا: لو عرف زرّي سرّي لطرحته»[16] فكأنهم رأوا أن خلاصة العلاقة مع الله تتضمن سرًا بين العبد المحبّ وربّه، وأن السر بينهما كالسرّ بين المحب والمحبوب، ويتداخل السرّ في علاقة معقدة مع العلم والشهود والبوح، ولذلك قال أحدهم عن السرّ[17]:

سَأَكْتُمُ مِنْ عِلْمِي بِهِ مَا يَصُونُهُ ... وَأَبْذُلُ مِنْهُ مَا أَرى الحَقَّ يُبْذَلُ

وَأُعْطِي عِبَادَ اللهِ مِنْهُ حُقُوقَهُمْ ... وَأَمْنَعُ مِنْهُ مَا أَرى المَنْعَ يَفْضُلُ

عَلَى أَنَّ لِلرَّحْمَنِ سِرًّا يَصُونُهُ ... إِلَى أَهْلِهِ فِي السِّرِّ وَالصَّوْنُ أَجْمَلُ

---

[16] القشيري، عبد الكريم، أبو القاسم: الرسالة القشيريّة في علم التصوف، بيروت، دار أسامة، (١٤٠٧هـ/١٩٨٧م)، ص٧٦.

[17] الغزالي، محمد بن محمد، أبو حامد، إحياء علوم الدين، بيروت، دار الهادي، ط١، (١٤١٢هـ/١٩٩٢م)، ج٤، ص٤٨٧، كتاب المحبة والشوق والأنس والرضا.

www.mtenback.com

من صفات السر وأحواله:

لا يعدو السرّ أن يكون خبرًا أو حادثة أو سلوكًا، يقوم بفعله شخصٌ أو أشخاص، ثم تقتضي مصلحةٌ ما أن يظلّ مستورًا مطويًا عن النشر، وقد تستوجب هذه المصلحة الكتمان تجاه فردٍ بعينه أو مجموعة مخصوصة من الناس، وربما استوجبت الكتمان أمام المجتمع المحيط بأسره. والسرّ بعد ذلك قد تتحدد غايته ومداه بزمن معين يطول أو يقصر، أو تبقى المصلحة متعلقة بتغييبه مدى حياة صاحبه. على أنّ كثيرًا من الأسرار يرجو أصحابها لو يقدَّرُ لها أن تُدْفَن إلى أن يرحلوا عن هذه الحياة.

«وعلى الرغم من أن الإنسان اجتماعي بطبعه وأن من لوازم هذا الطبع أن يشارك المجتمع جزءًا مهمًا من حياته وآماله وطموحاته، إلا أنّ أهم ما يميز حياة الإنسان احتفاظه بشيء من ذاته الخاصة، يحرص على بقائه بعيداً عن الأنظار ولا يريد أن يكون له حظ من الظهور والانتشار»[١٨].

ومِن الأسرار ما يفقد كتمانُها جدواه وغايته التي استُتِر بسببها، إذا مات صاحبها. من ذلك أن النبي ﷺ أسر إلى فاطمة رضي الله عنها خبر اقتراب أجله فبكت وأخبرها خبرًا آخر فضحكت، فلمّا سألتها عائشة عن ذلك أبت أن تفشي سرّ رسول الله حتى مات. فلما مات وعزمت عليها عائشة مرة أخرى أخبرتها بما أسرّ النبي إليها[١٩].

ومن السرّ ما يفقد غاية استتاره، وتزول حُرمة كتمِه بعد زوال أسباب إخفائه؛ حسبما يرى من استُودِعَتْ عنده. ومن أمثلة ذلك ما روي من أن عمر عرض ابنته حفصة على أبي بكر رضي الله عنه، فلم يجبه بشيء، فلما تزوجها النبي أخبر أبو بكر

---

[١٨] انظر: ابن تنباك، د. مرزوق بن صنيتان: السرّ كما صوّره تراثنا العربي. ص١، بحث نشر في مجلة جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض.

[١٩] المنذري: مختصر صحيح مسلم، انظر: الحديث رقم (١٦٥٥) ص ٤٩٦.

www.mtenback.com

عمر بسبب سكوته عن إجابته لما عرض عليه حفصة، وذلك أنه علم أن الرسول أراد خطبتها فلم يفش سره[٢٠].

فالسرّ، إذن، في حدّ ذاته ليس شيئًا ماديًا معينًا. إنه حالةٌ مخصوصة أو موقفٌ اعتباريّ لا يستقرّ أمره بالضرورة على كشفٍ كامل أو ستر جزئيّ.. بل تتغير المصلحة الفردية والعامّة بينهما.

وسَتر السرّ محدود، كما هو معلومٌ، بعالم المخلوقات العاقلة. لأنّ الله تعالى عنده علمُ كلّ شيء، سرًا كان أم علنًا، باطنًا أم ظاهرًا، بشريًا أم كونيًا. قال تعالى: ﴿وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾[٢١]. وهو مطّلع على دواخل النفوس الإنسانية وهواجسها وخواطرها فلا يغيب عنه منها شيء، قال تعالى: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ﴾[٢٢]. أمّا البشر، المخلوقاتُ المحدودة، فعاجزون قاصرون عن كشف أسرار الغيب. قال الشاعر[٢٣]:

لا يَعْلَمُ المَرْءُ لَيْلاً مَا يُصَبِّحُهُ ... إلاَّ كَوَاذِبَ مِمّا يُخْبِرُ الفَالُ

وَالفالُ وَالزَّجْرُ وَالكُهّانُ كُلُّهُمُ ... مُضَلَّلُونَ وَدُونَ الغَيْبِ أَقْفَالُ

وما تطويه الأيام القادمة سرٌّ دفين لا يعلمه إلا الله. قال الشاعر[٢٤]:

إِنَّ اللَّيالِيَ وَالأَيّامَ حافِلَةٌ ... وَلَيْسَ يَعْلَمُ غَيْرُ اللهِ ما تَلِد

---

[٢٠] الزّبيدي: التجريد الصريح، انظر: الحديث رقم (١٥٣٣) ص ٥١٦.

[٢١] سورة المُلك، الآية ١٣.

[٢٢] سورة البقرة، الآية ٢٣٥.

[٢٣] المبرّد: الكامل، ج١ ص ٢٧٨.

[٢٤] ابن الجوزي، عبد الرحمن، أبو الفرج: صيد الخاطر، تحقيق: ناجي الطنطاوي، راجعه وعلّق عليه: علي الطنطاوي، جدّة، دار المنارة للنشر والتوزيع، ط٥، (١٤١٢هـ/١٩٩١م)، ص٧٧.

www.mtenback.com

وهذه القناعة الفطرية، تبدو بيُسرها واضحةً في فهوم الصغار واليافعين فضلاً عن البالغين العاقلين. يقول ابنُ أبي ليلى: رأيتُ بالمدينة صبيًا قد خرج من دارٍ وبيده عُودٌ مكشوف، فقلت له: غَطِّه لأنه عيب، قال: أوَ يُغَطّى من الله شيءٌ؟ لا بلغت![٢٥].

فلا يحسن بالإنسان العاقل أن يعمد إلى إظهار شيء وإخفاء غيره بين يدي ربه لأنه سبحانه وتعالى مطّلع على كل شيء، وإنما شأنُ العاقل أنْ يراجع نفسه ويصفّي قلبه، لأنه لا فائدة من المراوغة والادعاء ها هنا. وإلا كان حالُه كحال الذين ﴿يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلاَّ أَنفُسَهُمْ﴾[٢٦].

وبقدر ما تنغمس النفس في مظاهر الدنيا وألوانها؛ تعمى البصيرة ويتيه القلبُ عن حقائق الكون. فينخدع بالظاهر وتغيب الأسرار والحقائق عن ساحة الفكر والمشاهدة، وأكثر ما يَستتر على الإنسان ما دُخِل عليه من باب الهوى. وهو الباب نفسه الذي يدفعه لأن يكشف سرّه وسرّ غيره أيضًا..

ومن أوسع أبواب الهوى التعلق بالنساء؛ فإنه يطيش بصواب صاحبه ويحيد به عن إدراك كُنْهِ ما بين يديه وسرّه، حتى إذا انكشف السر وذاب الوهم، انقلب صاحبه نادمًا كاسفًا.

والدنيا بجملتها هي امتحانٌ كبير واختبارٌ لمعادن الناس وأخلاقهم، فمن نظر إلى حقيقتها انكشف له سرّها و لم يخدعه ظاهرها. قال الثعلبي في وصف الدنيا[٢٧]:

لَقَدْ قَالَ فِيها الواصِفُونَ فَأَكْثَرُوا ... وَعِنْدِي لَها وَصْفٌ لَعَمْرِيَ صالِحُ

سُلافٌ قُصاراها زُعافٌ وَمَرْكَبٌ ... شَهِيٌّ إِذا اسْتَذْلَلْتَهُ فَهْوَ جَامِعُ

---

[٢٥] التوحيدي: البصائر والذخائر، ج ٤ ص ٩٥.

[٢٦] سورة البقرة، الآية ٩.

[٢٧] الغزالي: إحياء علوم الدين، ج٢ ص ٤١٧، كتاب آداب السماع والوجد.

www.mtenback.com

وَشَخْصٌ جَمِيلٌ يُؤْثِرُ النّاسُ حُسْنَهُ وَلَكِنْ لَهُ أَسْرارُ سُوءٍ قَبائِحُ

وكان شأن العاقلين دائمًا أن يهتكوا للناس سِترها، ويبينوا لهم زيفها، في خطبٍ مطوّلة وحِكَمٍ بليغةٍ وأقوال مأثورة.

لو كشف الغطاء حقًا لانقطعت الآمال وخَرِب العمران وزهد الأحياء بكل لذةٍ ورجاء. ولكنّ «كتم سرّ» الدنيا، كان سببًا عجيبًا في بقائها وتجدّدها. فحالُها في صلاحها بأسرارها كحال الإنسان في صلاح معاشه عليها؛ لا يستقيم أمره إلا بكتم سره، واستتار حاله.

لقد تطورت علوم الإنسان في هذا العصر في سعي حثيث لتحليل النفس الإنسانية وبيان دوافعها وغاياتها وكشف عوالمها وأحلامها، بأقل أدوات ظاهرة[٢٨]. وفي تراثنا العربي الإسلامي إشارات علمية وتطبيقات عملية، كان يُستنطق فيها السلوك الظاهر بمختلف أنواعه ليشخص حالاً غير معلنة، فيكشفها ويشير إليها.

نُقِل عن عثمان رضي الله عنه قوله: ما أسرّ أحدٌ سريرة إلا أظهرها الله على صفحات وجهه وفلتات لسانه[٢٩]. وكان سَلْم بن قتيبة يقول: لم يضيّع امرؤ صواب القول حتى يضيّع صواب العمل[٣٠].

وعلموا أنّ من أحب شيئًا أكثر من ذكره، فما تنطبع محبته في القلب تفضح الجوارح مكانته، وأنّ الخاطر الذي يجري على القلب لا يلبث أن ينطق به اللسان. ذكر الجاحظ أنّ رجلاً دخل على رجل يأكل أُتْرُجّةً[٣١] بعسل، فأراد أن يقول: السلام

---

[٢٨] من تعريفات علم النفس: هو الدراسة العلمية المنظمة للسلوك الإنساني التي تهدف لمعرفة النفس واستجاباتها.

[٢٩] المقدسي: الآداب الشرعية والمنح المرعيّة، ج١ ص ١٥٣.

[٣٠] الجاحظ: البيان والتبيين، ج٢ ص ١٧٨.

[٣١] الأُتْرُج: شجر ناعم الأغصان، ثمره كالليمون الكبار، وهو ذهبيّ اللون، حامض الماء.

www.mtenback.com

عليكم، فقال: عسليكم[٣٢]. و لم يتوانَ الظرفاء من أهل الأدب عن إطلاق أحكام مماثلة، فرأوا أن الكلام على اللسان لابد أن ينبئ عن حقيقة الإنسان، وأنه يكشف نيّة صاحبه وسرّ قلبه، خيرًا أو شرًا، صدقًا أو كذبًا.

ولعل من أشد ما يصعب خفاؤه، فلا تبرز علامات تدل عليه؛ إنما هو العشق فضلاً عن أن العاشق نفسه كثيرًا ما يفضح نفسه بلسانه، باحثًا عن متنفّسٍ لعذابه وأنيس يشكو إليه، قال الشاعر[٣٣]:

بَرِحَ الخَفاءُ فَبُحْتُ بِالكِتْمانِ ... وَشَكَوْتُ مَا أَلْقى إِلى الإِخْوانِ

لَوْ كانَ ما بي هَيّنًا لَكَتَمْتُهُ ... لَكِنَّ ما بي جَلَّ عَنْ كِتْمَانِ

لو كان الأمر يقف عند ستر أخبار الحبيبة وتجنّب الإشارة إليها في حديث؛ لهان الأمر. لقد باهى بعض المحبين بقدرتهم على كتم سرّ المحبوبة واستسرار حديثها، وليس في هذا كبير فضل. قال شمس الدين البدوي[٣٤]:

إِنّي كَتَمْتُ حَدِيثَ لَيْلى لَمْ أَبُحْ ... يَوْمًا بِظاهِرِهِ وَلا بِخَفِيِّهِ

وَلَها سَرائِرُ في الضَّمِيرِ طَوَيْتُها ... نَسِيَ الضَّمِيرُ بِأَنَّها في طَيِّهِ

إن شأن المحب أن يغار على محبوبته وأن يُخلص لها بكتم سرّها. ولكنْ ماذا يصنع المحب إذا حرّق الهوى فؤاده وكوى ما بين ضلوعه، فأبت عيناه إلاّ أن تسيلا بالدمع كأنهما تستدران الرحمة والعطف.. هل لهذا المسكين من ستر[٣٥]:

كَتَمْتُ الهَوى حَتّى إِذا نَطَقَتْ بِهِ ... بَوادِرُ مِنْ دَمْعٍ تَسِيلُ عَلَى الخَدِّ

---

[٣٢] الجاحظ: البيان والتبيين، ج٢ ص١٧٨.

[٣٣] الميداني، أحمد بن محمد، أبو الفضل: مجمع الأمثال، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، القاهرة، المكتبة التجارية الكبرى، ط٢، (١٣٧٩هـ/١٩٥٩م)، ج١ ص٩٥.

[٣٤] الأبشيهي: المستطرف، ج١ ص٢٢٥.

[٣٥] المبرّد: الكامل، ج٢، ص٧٠٣.

www.mtenback.com

وَشاعَ الَّذي أَضْمَرْتُ مِنْ غَيْرِ مَنْطِقٍ كَأَنَّ ضَمِيرَ القَلْبِ يَرْشَحُ مِنْ جِلْدِي

وقد حسم أبو العتاهية المسألة! فأكّد أن المحب مفضوح على أية حال، لأن الحب سلطانٌ قاهر، ولن يستطيع أحد أن يتصدى له بكتمان! فقال[٣٦]:

مَنْ كَانَ يَزْعُمُ أَنْ سَيَكْتُمُ حُبَّهُ أَوْ يَسْتَطِيعُ السَّتْرَ فَهوَ كَذُوبُ

الحُبُّ أَغْلَبُ لِلرِّجالِ بِقَهْرِهِ مِنْ أَنْ يُرى لِلسِّرِّ فِيهِ نَصِيبُ

على أنّ تأوُّهات المحب الذي انكشفت حاله، قد تكون سببًا لسعادته بالوصل مع الحبيبة، إذا صادفت أذنًا رحيمة قادرة على مساعدته، فيكون فوزه بمأموله ثمنًا لافتضاح أمره! هذا ما جرى لسليمان بن أبي جعفر الذي دخل عليه هارون الرشيد، فرأى عنده جارية له تسمى ضعيفة، في غاية الحسن والجمال، فوقعت في قلبه، فاستوهبها منه فوهبها له، فلمّا أخذها مرض سليمان من شدة حبه لها، فقال:

أَشْكُو إِلى ربِّ البَرِيَّةِ ما لقيتُ مِنَ الخَلِيفَه

يَسَعُ البَرِيَّةَ عَدْلُهُ وَيُرِيدُ ظُلْمِي فِي ضَعِيفَه

عَلِقَ الفُؤادُ بِحُبِّها كَالخِبْرِ يَعْلَقُ بِالصَّحِيفَه

فبلغ ذلك الرشيد، فردّها عليه[٣٧].

لقد رأى العرب أن سرّ الإنسان من دمه، فكأنه جزءٌ لا ينبغي أن ينفصل عنه، وكأن فيه شريان الحياة. وموطنه من الإنسان القلب؛ ففي القلب مستودع الأسرار وخزانة الخواطر ومكمن الخطر.

---

[٣٦] أبو العتاهية، إسماعيل بن القاسم: أبو العتاهية، أشعاره وأخباره، تحقيق: د. شكري فيصل، دمشق، مطبعة جامعة دمشق، (١٣٨٤هـ/١٩٦٥م)، ص٤٨٣.

[٣٧] ابن الجوزي: أسرار العشاق، انظر: ص٢١-٢٢.

www.mtenback.com

ووجدوا أن حمل الأسرار أثقل من حمل الأموال، فإن الرجل يستقلّ بالحمل الثقيل فيحمله ويمشي به، ولا يستطيع كتم السر. وإن الرجل يكون سره في قلبه فيلحقه من القلق والكرب ما لا يلحقه من حمل الأثقال، فإذا أذاعه استراح قلبه وسكن خاطره، وكأنما ألقى عن نفسه حملاً ثقيلاً. ومن عجائب الأمور أن الأموال كلما كثُر خُزّانها كان ذلك أوثق لها، وأما الأسرار فإنها كلما كثر خُزّانها كان أضيعَ لها[٣٨].

والاستتار الصحيح له شروط وأسباب يجب إدراكها والعمل بها، حتى يتحقق المراد وهو الإخفاء وطي الإخبار. فلا يُعقل أن يتعرض لأسباب النشر والإذاعة وينجو! لذا قال العرب في أمثالهم: «ما استتر من قاد الجمل»[٣٩]. ولا فائدة بعد ذلك أن يفعل الإنسان فعل النعامة التي تطمر رأسها في التراب لتظن أنها مستترة عن عيون الرقباء! - إن صح ما يقالُ عنها -.

وفي رأي المعري أنّ السرّ ينبغي ألا يعرف به سوى امرئ واحد فقط، هو صاحبه، ويُشبّه السر في ذلك بتشبيه طريف دقيق يترك معناه عالقًا بالخيال زمنًا طويلاً. يقول[٤٠]:

وَسِرُّك مِثْلُ العِرْسِ أَوْفَتْ لِواحِدٍ وَأَعْوَزَها لِلصّاحِبَيْنِ تَوافِي

فشبه السر بالمرأة في وفائها لزوجها، فإذا كان لها صاحبان ضاع الوفاء، وكذا السر! بينما يرى آخرون، مثلُ جميل بن معمر العذري، أن السر يحتمل أن يعلم به اثنان، هما الشريكان فيه، حيث يقول[٤١]:

---

[٣٨] الأبشيهي: المستطرف، انظر ص٢٢٥.

[٣٩] الميداني: مجمع الأمثال، ج٢، ص٣٠١.

[٤٠] المعرّي: ديوان لزوم ما لا يلزم، ج٢، ص٦٠.

[٤١] نصار، د. حسين: ديوان جميل، مكتبة مصر، (د.ت)، ص١١٥، حرّك الكاف في (سرك) بالفتح. وذكره المبرد في الكامل، ج٢، ص٧٠٠، وحرّك الكاف بالكسر. وكذا فعل غيرهُ.

www.mtenback.com

فَلاَ يَسْمَعَنْ سِـــرِّي وَسِـــرَّكَ ثَـــالِثٌ أَلا كُلُّ سِرٍّ جَـــاوَزَ اثْنَيْـــنِ شَـــائِعُ

وأكّد هذا المعنى في موضع غيره دون تحديد لهويّة العارفين بالسر! قال[٤٢]:

إِذَا جَـــاوَزَ الإِثْنَيْـــنِ سِـــرٌّ فَإِنَّـــهُ بَنَثٌ[٤٣] وَإِفْشاءِ الحَدِيثِ قَمِـــينُ[٤٤]

وجوّز بعضهم، بصراحة، أن يحلّ السرّ في صدر آخرَ غير صاحبه، بشـــرط ألاّ يعلم به أكثر من واحد، وإلاّ لم يعد سرًا، بل صـــار خـــبرًا شـــائعًا. قـــال الأشـــعر الجعفي[٤٥]:

وَسِـــرُّكَ مَـــا كَـــانَ عِنْـــدَ امْـــرِئٍ وَسِـــرُّ الثَّلاثَـــةِ غَـــيْرُ الخَفِـــــي

لعلّ ما انطبعت عليه نفوسنا هو أنّ السرّ لا يستحق الوصف به (أنّه سرّ) ما لم يشترك في العلم به شخصان على الأقلّ! وأنّ ما اختص بمعرفته واحد هو سر من الدرجة الثانية! ولعل سبب ذلك أنه يكون في هذه الحال أقرب لأن يكون شيئًا ميتًا معدومًا؟

لكنّ بشار بن برد رفض تشبيه أسراره الشخصية بالكائن الميت لسبب وجيـــه يذكره[٤٦]:

وَمَا السِّرُّ فِي صَدْرِي كَمَيْتٍ بِقَـــبْرِهِ لأَنِّي رَأَيتُ المَيْتَ يَنْتَظِـــرُ النَّشْـــرا

وَلَكِنَّنِي أُخْفِيـــهِ حَتَّـــى كَأَنَّنِـــــي بِمَا كَانَ مِنْهُ لَمْ أُحِطْ سَـــاعَةً خُـــبْرا

---

[٤٢] نصّار، ديوان جميل، ص٢٠٠.

[٤٣] النّث: إفشاء السر ونشره.

[٤٤] قمين: جدير، خليق.

[٤٥] قبّش: مجمع الحكم والأمثال في الشعر العربي، ص٢١٣، أورده المقدسي في الآداب الشرعية والمنـــح المرعيّة، ج٢ ص ٢٨١، وغيره، دون نسبة إلى قائله.

[٤٦] قبّش: مجمع الحكم والأمثال في الشعر العربي، ص٢١١، لم أجدهما في ديـــوان بشـــار، أوردهمـــا العجلوني بلفظ مشابه في كشف الخفاء، ج ١ ص ٥٤٧ ونسبهما إلى عبد الله بن طاهر الوزير.

www.mtenback.com

على أنّ لفيلسوف الأدباء في العصر العباسي، أبي حيان التوحيدي وجهة نظر غريبة.. إذ لا يهم عنده أن يعرف بالسرّ واحد أو أكثر، لأن مآل السر إلى الافتضاح في النهاية وإلا كيف سيكون موجودًا! وافترض مسألة طرحها في مقابساته، وهي: ما السبب في أنّ السر لا ينكتم البتة؟ وأجاب بأن السر اسمٌ لأمر موجود قد ضُرب دونه حجاب وأغلق عليه باب، وهو مع ذلك موجود العين ثابت الذات فباتصال الزمان يتوجه نحو غاية هي كماله في النمو والظهور، لأن انتهاءه إليها، ولو بقي مكتومًا خافيًا أبدا لكان والمعدوم سواءً، فضلاً عن أن الحجاب المضروب على هذا السر يرِثُّ ويخلَق، لأنه لا يبقى على هيئته الأولى يوم يقع سرًا ويحدث مكتومًا!![٤٧]

حقًا ما أسرع أن ينكشف السر ما دام المكتوم يحرّك في صدور الناس تساؤلات وظنونًا ويدفعهم لاستكشافه واستطلاع أمره! هذا يذكّر بقول أردشير: «الداء في كلّ مكتوم»[٤٨].

وبدهي أن الإنسان العاقل يجب أن يستر بعض أموره وخصوصياته، وقد يبالغ في الاحتياط حتى في بعض الأمور التي لا تستوجب الستر. ومع أن حُبَّ الستر المادي والمعنوي دافع فطري سوي أكده الإسلام وأمر به إلا أن المبالغة فيه قد تصبح حالة مرضية ووسوسة قد تؤثر في تصرُّفات الإنسان وصلاته بالناس ومع كل ذلك فقد أثر عن حكماء العرب أن كتمان الأسرار يدلّ على جواهر الرجال. وكما أنّه لا خير في آنيةٍ لا تمسك ما فيها كذلك لا خير في إنسان لايُمسك سره[٤٩] لذا حكموا بحماقة من يفشي سرّه، لأنه يفتح بيده باب هلاكه وسوء عاقبته والتشهير به.

---

[٤٧] التوحيدي، أبو حيّان: المقابسات، تحقيق: حسن السندوبي، القاهرة، دار الكتاب الإسلامي، ط٢، (١٤١٣هـ/١٩٩٢م)، انظر: ص١٤٥-١٤٦.

[٤٨] المبرّد: الكامل، ج ٢ ص٧٠٠.

[٤٩] الأبشيهي: المستطرف، انظر: ص٢٢٥.

www.mtenback.com

قال الإمام الشافعي[٥٠]:

إِذَا المَرْءُ أَفْشَى سِرَّهُ بِلِسَانِهِ ... وَلامَ عَلَيْهِ غَيرَهُ فَهْوَ أَحْمَقُ

إِذَا ضاقَ صَدْرُ المَرْءِ عَنْ سِرِّ نَفْسِهِ ... فَصَدْرُ الَّذِي يُسْتَودَعُ السِّرَّ أَضْيَقُ

وتشدّد بعضهم؛ فلم يجيزوا لصاحب السرّ أن يعاتب أو يلوم فاضح سرّه المستودع عنده، لأنّ الجاني الحقيقي هو صاحب السر الذي لم يطق حفظه في صدره.

وعجز المرء عن مداراة الناس بكتم ما لا يُرضى منه، هو دليل ضعف ورعونة، وسبب لنعته بالجهالة وقِصَر النظر، ووصمه بعيب أصيل يشار به إليه! ذكر الجاحظ أن بليغًا ذمّ رجلاً فقال عنه: سيىء الرويّة، قليل التّقيّة، كثير السعاية، قليل النكاية.[٥١]

وجعل محمد بن داود الظاهري علامة السكران أن تعزُب عنه الهموم ويبوحَ بسرّه المكتوم[٥٢]. يغيب عقله وتغدو نفسه بلا رقيب ولا ضابط فيكشف المستور ويقع المحذور.

ليس أجلّ في العين ولا أبلغ حكمة، من إنسان يُحسِنُ مداراة الناس ويعرف كيف يُنزِلهم منازلهم، فلا يظهر منه في كل مقام إلا ما يقتضيه، ولا ينكشف منه ما يُخل بشرفه أو يذهب بمروءته، فإذا فعلَ نالَ ثقة الناس به وحل من نفوسهم محل الإجلال والرضا، واكتملت صيانته لعِرْضه بين الناس، فتصرف عنه عيون المتشككين ويكثر محبوه.

وثمة طبقات في المجتمع تظل أخبارها محطّ أنظار الناس واهتمامهم، ويبقى أصحابها عُرضةً لتلصّص المستخبرين واستكشاف الفضوليين من هؤلاء أشرافُ الناس

---

[٥٠] الإمام الشافعي: ديوان الشافعي، ص٦٥.

[٥١] الجاحظ: البيان والتبيين، ج٢، ص١٠٧.

[٥٢] النشاشيبي: نُقل الأديب، ص٧٧.

www.mtenback.com

وحكامهم وذوو النعمة فيهم، ومنذ زمن قديم شكا بعض الملوك من تنقيب العوام عن أسرارهم[٥٣]:

مَـا يُرِيـدُ النّـــاسُ مِنّـــا ... مـا يَنـــامُ النّـــاسُ عَنّـــا

لَـــوْ ســـكَنّا بـــاطِنَ الأَرْ ... ضِ لَكـــانُوا حَيْـــثُ كُنّـــا

إِنَّمـــا هَمُّهُـــمُ أَنْ ... يَنْشُـــرُوا مـــا قَـــدْ دَفَنّـــا

وقد شكا هشام بن عبد الملك ما يجد من فقد الأنيس الأمين على السر، قال: ما بقيت لي لذة إلا وجود أخ أضع بيني وبينه مؤونة التحفظ[٥٤].

وما أصعب ما يضطر إليه العاقل من المداراة ومخالقة الناس بما يحبون ويرضـــون، مع أنّ مرضاة الناس كلهم غاية لا تُدرك، ولو خالط صاحب القدْر عامّة الناس فـــرأوا منه ما يرون من بعضهم من طلب المعاش وتقلّب الأحوال البشرية، لزالت هيبته مـــن قلوبهم وسقط من عيونهم، لأنهم كانوا يظنونه شيئًا غير البشر!

وأمّا شأن المرأة مع السر فأمر عجيب! وليس ما نقوله تحاملاً عليها ولا تجنيًـــا، لقد أكد كثير من الحكماء أن المرأة لا تُحسن كتم سرٍّ، وكان يقال: لا تطلعوا النساء على سرّكمْ، يَصلُحْ لكم أمرُكم[٥٥]. وطبعًا لا يسري هذا الحكم على كل النســـاء؛ لكن المرأة بطبعها النفسي وميلها العاطفي، وغلبة الجانب الانفعـــالي في شـــخصها.. يتغلّب ضعفها وعجزها عن احتمال القيام بأمانة الأسرار، والوفاء بهـــا إلى غايتهـــا. ويؤكد ذلك ما لحمل السر من وحشة في النفس ومخالفة للهوى، بما يعارض طبع المرأة الأنيس المؤنس!

---

[٥٣] الجاحظ: رسائل الجاحظ، ص ١١٥.

[٥٤] الجاحظ: رسائل الجاحظ، ص ١٠٥.

[٥٥] المقدسي: الآداب الشرعية والمنح المرعيّة، ج ٢ ص ٢٨٢.

www.mtenback.com

لذلك كان السر في صدرها أحد سرين: سرٌ أعظم من أن تحفظه، وآخر أحقرَ من أن تكتمه! وهي مع ذلك، إذا ما أحبّت، قدرت أن تكتم هواها سنوات، وإذا أبغضت لم تصبر عن إبداء بغضها يومًا واحدًا![٥٦].

ذكر ابن الجوزي أن جارية لبعض الخلفاء كانت تحبه حبًا شديدًا ولا تُظهر له ذلك، فسئلت عن هذا فقالت: لو أظهرتُ ما عندي فجفاني هلكت[٥٧].

وقد أفرد الأدباء والحكماء أبوابًا خاصة في كتبهم تحكي أحوال النساء وسُبُل مداراتهنّ ومعاملتهنّ، وتركوا وصايا وحِكمًا تبدو قاسيةً في حقهن أحيانًا، لكنها مصيبة مع الأسف! ذكر الجاحظ أن عبد الملك بن صالح أوصى ابنًا له فقال: لا تساعد النساءَ فيملُلْنَكَ، واستبقِ من نفسك بقيةً، فإنهن إن يرينك ذا اقتدار خيرٌ من أن يطّلِعْن منك على انكسار[٥٨].

وآخر ما يقال عن أرباب الأسرار؛ أنّ الإنسان بطبعه يحتاج إلى أخ ثقة يستشيره في أمر عارض حلّ به أو معضلة وقع فيها، ولا يسرّه أن يجهر بها إلا بقدر ما يلزمه الخروج منها، فيضطر للكشف والبيان لمن يرجو نصحه ويثق بمودته وإخلاصه وكتمانه. ولا يبوح إلا وقد غلب على ظنه أن الفائدة المرجوّ تحصيلها أكبر من الحرج والخطر الذي قد يصيبه. هذا إن كان عاقلاً يقدّر موضع منفعته وصالح نفسه؛ وما لم يكن كذلك، لم يبال ما ظهر منه وأمام من ظهر.

إننا ننسى أخطاءنا إذا شكونا إلى صديق، ولكن الشخص الآخر في العادة لا ينساها! يروى أن عبد الملك بن مروان كتب ببعض سِرّه إلى الحجّاج، ففشا، فكتب

---

[٥٦] قال الإمام علي: المرأة تكتم الحب أربعين سنة ولا تكتم البغض ساعة واحدة؛ كما في: بيضون، لبيب: تصنيف نهج البلاغة، دمشق، منشورات مكتبة أسامة كرم، ط١، (د.ت) ص٣٢٦.

[٥٧] ابن الجوزي: صيد الخاطر، ص ٢٩٩.

[٥٨] الجاحظ: البيان والتبيين، ج ٤ ص ٩٤.

www.mtenback.com

إليه يعاتبه، فكتب الحجاج: والله يا أمير المؤمنين، ما أخبرتُ به إلا إنسانًا واحدًا، فكتب إليه عبد الملك: إن لكل إنسان نصيحًا يُفشي إليه سِرّه.

وقال بعض الشعراء في ذلك[٥٩]:

أَلَمْ تَرَ أَنَّ وُشَاةَ الرِّجَالِ لا يَتْرُكُونَ أَدِيمًا صَحِيحًا

فَلا تُفْشِ سِرَّكَ إِلاَّ إِلَيْكَ فَإِنَّ لِكُلِّ نَصِيحٍ نَصِيحًا

محاسن الكتمان وفضائله:

لا يحتاج العاقل لكثير تفكير وكبير جهد ليقرر أن مصلحته تقتضي كتم أسراره، وتجنيب الآخرين الخوض في خصوصياته، بل وأخباره العامة المُعلنة إذا لم يكن في حديثهم مديح له وإعلاء لشأنه! وأما غير العاقل فلا يضبط لسانه ولا يعرف ما يقول ولا ما يريد. ولقد قرّر العرب أنّ «صدر العاقل صندوق سرّه»[٦٠]، وأنّ من كتم سرّه كان الخيار إليه ومن أفشاه كان الخِيار عليه[٦١] وذكروا في أمثالهم أنّ «أملك الناس لنفسه أكتمهم لسرّه»[٦٢].

وكان هذا الموقف نفسه عند أصحاب الفِطرِ الصحيحة التي رعتها الصحراء. فأدركوا أهمية الكتمان والاستتار، وسألوا ربهم الإعانة عليه. ذكر الجاحظ أن أعرابيّة حجّت فلمّا صارت بالموقف قالت: أسألك الصحبة يا كريم الصحبة، وأسألك سِترك الذي لا تزيله الرياح ولا تخرّقه الرماح! [٦٣].

---

[٥٩] الوشّاء: الموشّى أو الظرف والظرفاء، انظر ص ٦١.

[٦٠] تيمور، أحمد: علي بن أبي طالب، شعره وحِكَمهُ، القاهرة، لجنة نشر المؤلفات التيمورية، ط١، (١٣٧٨هـ/١٩٥٨م)، ص٤٤.

[٦١] الماوردي: أدب الدنيا والدين، ص ٢٩٥، وانظر: الميداني: مجمع الأمثال، ج٢ ص٤٥١.

[٦٢] الميداني: مجمع الأمثال، ج ٢ ص ٢٨٧.

[٦٣] الجاحظ: البيان والتبيين، ج ٣ ص ٢٧٤.

www.mtenback.com

وطلب بعض الشعراء (اضطهاد) المرء لسرّه! وذلك بإماتته أو حجبه وسجنه في قفص الصدر. لأنّ كائنًا مثل السرّ ليس له مكانٌ سوى الظلمة والتعتيم[٦٤]:

وَلا تُخْبِرْ بِسِـــرِّكَ بَـلْ أَمِتْـــهُ ... وَصَيِّر فِي حَشَـــاكَ لَـهُ حِجابـا

فَمَا أَوْدَعْـتَ مِثْـلَ القَلْـبِ سِـرًّا ... وَلا أَغْلَقْـتَ مِثْـلَ الصَّـدْرِ بابـا

لم تكن الدعوة للكتمان خاصة بالأسرار في مفهومها الشائع، بل هناك أسـرارٌ أخرى من نوع آخر، يَحْسُن بالحكيم سترها. فهذا ابن طباطبا يوجّه نصيحة مخلصة للشعراء وخصوصًا المبتدئين منهم، قال: «ينبغي للشاعر في عصرنا ألا يُظهر شعره إلا بعد ثقة بجودته وحسنه وسلامته من العيوب التي قد نُبّه عليها»[٦٥]. والغايـة ألا تتناولـه ألسنة نقاد الأدب لتضعه «على السَّفُّود»[٦٦]، وألا يظهر العمل الأدبـي إلا بعـد أنْ يتحصّن بالنضج والكمال لئلا يُنْتَقد ويُجَرّح بعد أن تكون الكلمة قد خرجت من فـم صاحبها إلى الناس وما عاد إلى ردّها من سبيل.

ولا يقتصر الكتمان في غايته على الأسرار بمعناها المعروف، فمُداراة الناس، كما أسلفنا، هي من الكتمان، أو إن الكتمان هو من مداراة الناس!

ففي معاملة الناس يحتاج المرء لمداراة أصناف الناس وطبقاتهم، ويبلغ به غايـة الفضيلة فيها وكمالَ العقل والأدب منها، أن يُسالم أهلها ويملك نفسه عـن هواهـا، ويكفّ من جماحها، بالأمر الذي لا يُحْرِجه في دينه ولا عرضه ولا بدنه، بل يفيده عِـزّ الحِلْمِ، وهيبة الوقار[٦٧].

---

[٦٤] الوطواط: غُرر الخصائص الواضحة، ص١٨٣.

[٦٥] التوحيدي: البصائر والذخائر، ج٧، ص٩٦.

[٦٦] عنوان كتاب نقديّ، للمرحوم مصطفى صادق الرافعي.

[٦٧] الجاحظ: رسائل الجاحظ، انظر ص٨٩.

www.mtenback.com

ومن فوائد هذه المداراة أن يصون الإنسان شرفه ويذيعَ عنه صيتًا حسنًا وذكرًا حميدًا، وهذا لا يعني أنه منافق ذو وجهين، ما دامت غايته كفّ الأذى ومجانبة الجهلة والرعاع، واستيعاب الناس حسبما رُكّبت عقولهم واعتادت نفوسهم. قال حكيمٌ لابنه: يا بني! إنما الإنسان حديث، فإن استطعت أن تكون حديثًا حسنًا فافعل[٦٨].

وقد صور بعضهم خروج السر من كهفه المظلم إلى سطوع الانكشاف، فقال: إذا انتهى السر من الجنان إلى عَذَبة[٦٩] اللسان فالإذاعة مستولية عليه، وعيون الحوادث تنظر شزرًا إليه[٧٠].

وحين يُضرب الستر على معصية قد يرتكبها إنسان مؤمن في لحظة ضعف بشريّ، فيندم على ما فعل ويؤثر الاستتار، ويحتمي بستر الله؛ فربما كان هذا إشارة إلى رحمة إلهية في الدنيا والآخرة. فقد ورد في الحديث: «لا يستر عبد عبدًا في الدنيا إلا ستره الله يوم القيامة»[٧١].

وستر الله لمعاصي الخلق ومخازيهم في الدنيا، هو من سَعَته وحلمه، فلو كانت الذنوب تفوح لما جلس أحدٌ إلى أحد[٧٢]. ولو أعطانا الله القدرة على أن نرى الناس بما تدلّ عليه أعمالهم لرأى بعضنا ذئابًا أو كلابًا.. ولكن ستر الله أوسع[٧٣].

وقد قال أبو العتاهية:

أَحْسَنَ اللهُ بِنَا أَنَّ الخَطَايَا لا تَفُوحُ

---

[٦٨] الجاحظ: رسائل الجاحظ، ص ١١٦.

[٦٩] عَذَبَة اللسان: طَرَفُه.

[٧٠] الوطواط: غرر الخصائص الواضحة، ص ١٨٣.

[٧١] المنذري: مختصر صحيح مسلم، الحديث رقم ١٧٧٧، ص ٥٣٤.

[٧٢] التوحيدي: البصائر والذخائر، ج ٥ ص ١٥٩.

[٧٣] السباعي، د. مصطفى: هكذا علمتني الحياة، القسم الأول، ط٢، (١٣٩٢ هـ/١٩٧٢م)، ص٢٣.

www.mtenback.com

لقد ضرب الله سبحانه بجميل ستره أمثلة رفيعة نقتدي بها ونتعلم المعاني السامية في محاسن كتم السرّ. وكانت سيرته ﷺ الشخصية إنسانا والعسكرية قائدًا، نموذجًا عاليًا في التكتم وإخفاء الأسرار عن العدوّ، والتمويه في تكتيكاته وتنقلات جيشه.

وفيّ بيان لقيمة فضيلة الستر، مهما كان نوعه، روي في الحديث: «من رأى عورةً فسترها كان كمن أحيا موؤودة»[٧٤]. ولم يحدّد النص رؤية العين أو القلب، والستر المادّي أو المعنوي.. فللستر بحاليه أهميته وغايته.

وكان ﷺ يستر مشاعر البغض تجاه بعض الناس لمصلحة عامة أو غاية مشروعة تقتضي إبقاءهم على الحياد في غفلة وجهل، فقد ورد عنه ﷺ: «إنّا لنَبشُّ في وجوه قومٍ، وقلوبنا تلعنهم»[٧٥]، فهذا من باب اتباع الأولى وتغليب الأصلح.

ومن الاستتار الذي لا تخفى محاسنه؛ الصمت. فقد قيل: «كن صموتًا فإن الصمت زِينةُ العالِم وستر الجاهل»[٧٦].

ومن الغريب أن كثيرا ممّن يستترون بالصمت لا يلبث أن ينكشف حالهم، لأنه لابد من الكلام مهما طال الصمت.

والستر على عورات الآخرين يمكن أن يعود بنفع، فيكفّ أذى من يسترهم عن نفسه، خصوصًا إذا كان مَن يستر ضالعًا في منقصة تشبه في سوئها عورات الآخرين، قال بعض العرب: «استر عورة أخيكَ يَسْتُرْ ما يعلم فيك»[٧٧]. فموجب الستر هنا أبلغ وأبين إنه ليس فضيلة أخلاقية بقدر ما هو صون للذات. وإنّ من اللؤم أن يعيّر الإنسان الآخرين بما هو فيه.

---

[٧٤] أبو داود: سنن أبي داود، الحديث رقم (٤٨٩١) ج ٥ ص ٢٠١.

[٧٥] العجلوني: كشف الخفاء، الحديث رقم (٦٢٥) ج ١ ص ٢٣٨.

[٧٦] تيمور: علي بن أبي طالب، شعره وحِكَمه، ص٥٢.

[٧٧] التوحيدي: البصائر والذخائر، ج ٦ ص ١٦٥، وانظر: الميداني: مجمع الأمثال، ج ١ ص ٣٣٨.

www.mtenback.com

ومن الكتم الذي تجلو محاسنه، منعُ المحب سرَّ محبوبته وكتم أخبارها، ففي هذا مروءة ونخوةٌ ودليل للمحبوب على إخلاص المحبّ، قال جميل بثينة[٧٨]:

زَعَمَتْ بُثَيْنَةُ أَنَّ حُبِّيَ كَاذِبٌ ... جَهْلاً وَأَنِّيَ مَازِحٌ غَدَّارُ

لَوْ تَعْلَمِينَ وَقَبْلَ مَا جَرَّبْتِنِي ... فَالعِلْمُ يَنْفَعُ وَالعَمَى ضَرَّارُ

لَعَلِمْتِ أَنِّي لِلْمَغِيبَةِ حَافِظٌ ... لِلسِّرِّ مِنْكِ وَأَنَّنِي بَصَّارُ

ولو أردنا ملاطفة الشاعر لقلنا له: هأنتذا هنا تذيع سرَّ بثينة للأجيال المتعاقبة بعد ما طرحته في أبيات يتناقلها الناس جيلاً بعد جيل!!

والكتم في حالات سلبيّة قد لا يخلو من دلائل حسنة، فمن أطاع أمرك ظاهرًا وخالفك باطنًا، دلّ على هيبة لك، قال الإمام الشافعي[٧٩]:

اقْبَلْ مَعاذِيرَ مَنْ يَأتِيكَ مُعْتَذِرًا ... إِنْ بَرَّ عِنْدَكَ فِيمَا قَالَ أَوْ فَجَرَا

لَقَدْ أَطاعَكَ مَنْ يُرْضِيكَ ظَاهِرُهُ ... وَقَدْ أَجَلَّكَ مَنْ يَعْصِيكَ مُسْتَتِرا

إنّ من أهم ما يجنيه كاتم سره وسرّ غيره، هو كسب الثقة ممّن حوله، ومحطّ الاحترام، ومثوى الاستشارة، وطلب المعونة. روى الجاحظ أن العباس قال لابنه عبد الله: «يا بنيّ! إنّ هذا الرجل يُدْنيك - يعني عمر بن الخطاب - فاحفظ عنّي ثلاثًا: لا تُفْشِ له سرًا، ولا تغتابنّ عنده أحدًا، ولا يطّلعَنّ منك على كِذْبة»[٨٠]. فهذه خصالٌ تكفل في صاحبها صفاء السريرة وصدق الإخلاص وصون الأمانة. وهي ما يطلبه الأمراء في وزرائهم.

---

[٧٨] التوحيدي: البصائر والذخائر، ج ٣ ص ١١٤. لم أجد الأبيات في ديوان جميل.

[٧٩] الإمام الشافعي: ديوان الشافعي، ص٤٤.

[٨٠] الجاحظ، عمرو بن بحر: الحيوان، تحقيق: عبد السلام هارون، مصر، مكتبة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، ط١، (١٣٦٢هـ/١٩٤٣م) ج٥، ص١٨٩.

www.mtenback.com

وآخر ما يقال: إنّ لكاتمِ سِرّه من كتمانه إحدى خصلتين وفضيلتين: الظفر بحاجته والسلامة من شرّ الإفشاء[٨١].

أنواع الستر المحمودة:

الكتمان سلوك قصديّ يهدف مصلحة لا تتحقق إلا بمنع نشر المقصود من خبر أو فعل أو غيره فإذا كان في الكتمان خير كان محمودًا؛ وإن كان فيه أذى أو منفعة فردية على حساب الآخرين، كان مذمومًا.

والكتمان منهجٌ ربّانيّ قبل أن يكون سلوكًا بشريًا اجتماعيًا، فأعاجيب الخلق لا حصر لها، وأسرار الله سبحانه في الكون مبثوثة، وفي ذلك حكمةٌ إلهية. وما أكثر الأسرار التي كشفها الله للإنسان وما أكثر تلك التي بقيت مستورة في طيّ الغيب تنبئ عن جلال الخالق وعظمته، وتخبر عن عجز البشر وضعفهم، وتكسر كبرياء الغرور في المتجبرين والمتكبرين. وربما استثارت أحيانًا طاقات الإنسان ليثبت حقًا أنه خليفة الله على الأرض.

ذكر التوحيدي أن رجلاً سأل أبا عبد الله الطبري عن الحكمة في خلق الله الحية والعقرب والأسد، مع ما فيها من الضرر الظاهر والأذى القاهر. فقال الطبري: حدثني أيها الرجل مُذْ كم لسعتك عقرب أو لدغتك حية؟ قال: ما أذكر شيئًا من هذا مذ كنتُ. قال: فمتى عهدُك بمن عابك واغتابك، وكتم محاسنك، ونشر إساءتك، وسعى في هلاكك؟ قال: أقربُ عهد، قال: فإن كنت عرفت الحكمة هناك فسُقْها إلى مسألتك، وإن كنت جهلتها هناك وسلمتها لخالقك فاجهلها هنا وسلّم لخالقك[٨٢].

لقد زخرت نصوص الشريعة بقواعد ومحدّدات لأنواع من الستر والكتمان المحمودة، مشيّدة بذلك جانبًا من البنية الأخلاقية والسلوكية في نظام الإسلام الحضاري

---

[٨١] البيهقي: المحاسن والمساوئ، ج٢، ص٨٤.

[٨٢] التوحيدي: البصائر والذخائر، انظر ج ٤ ص ١٢.

www.mtenback.com

المميزّ، وتركَتْ مفاهيم وأطُرًا عامة لسلوكيات الكتمان، تجسد نهجًا مفهومًا واضحًا، عن المندوب والممنوع، باستيعاب متجدّد، لأنواع الستر المحمودة: منها ستر عيوب الناس ونقائصهم المكتومة، وعدم إذاعتها: حيث جعل الشارع ثواب ذلك عظيمًا، فقد ورد في الحديث: «لا يستر عبد عبدًا في الدنيا إلا ستره الله يوم القيامة»[٨٣]. فدلّ على كرامة الإنسان عند ربه، وحقّه في الصون والستر.

ومنها ستر المسلم لعورته الجسمية حيث قرّرت النصوص حدود العورة الجسمية التي لا يجوز كشفها، وأمرت المرأة بالحجاب والستر صونًا لأخلاق المجتمع وضبطًا لسلوكه وتنظيمًا، وأمر الإسلام كُلاً من الرجال والنساء بغض البصر وصرف النظر عن المحرمات بهدف بناء فضيلة الحياء في النفس بطريق سويّ لا تشدّد فيه، وصونًا معتدلاً لمفاهيم العفة والتسامي. قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَابِيبِهِنَّ﴾[٨٤]. وقال: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ. وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ﴾[٨٥].

ومن اللياقة التشاغل عن تتبع أسرار الناس وأخبارهم: وذلك حتى يرتفع المرء عن صفة الفضول بما تدلّ عليه من دناءة وتفاهة. وليبقى المسار العام للشخصية متجهًا نحو أهداف وغايات رفيعة، تنطلق من جهد الفرد وسعيه، لا من مراقبة الناس. ورد في الحديث: «من حُسن إسلام المرء تركُه ما لا يعنيه»[٨٦].

---

[٨٣] المنذري: مختصر صحيح مسلم، الحديث رقم ١٧٧٧، ص ٥٣٤.

[٨٤] سورة الأحزاب، الآية ٥٩.

[٨٥] سورة النور، الآيتان ٣٠، ٣١.

[٨٦] الترمذي، محمد بن عيسى، أبو عيسى: سنن الترمذي، تعليق: عزت عبيد الدعاس، حمص، مكتبة دار الدعوة، ط١، (١٣٥٨هـ/١٩٦٥م)، الحديث رقم ٢٣١٨، ج٧، ص٧٧.

www.mtenback.com

وأيضًا عدم النظر والتجسس، على الأشياء الخاصة بالآخرين: تقديرًا لذات كل إنسان وحقه في التستر على خصوصياته، قال تعالى: ﴿وَلَا تَجَسَّسُوا﴾[٨٧]، وجاء في الحديث: «من نظر في كتاب أخيه بغير إذنه، فكأنما ينظر في النار»[٨٨].

والدعاء أيضًا بظهر الغيب للآخرين: فيه دليلٌ أكبر على حب الخير وإرادته للناس، واستحضارٌ لعواطف الآخرين وتقدير لحاجاتهم وإحساس بآلامهم، وهذه في الإسلام قيمة اجتماعية عليا، يثيب الله عليها ثوابًا عظيمًا، ورد في الحديث: «دعوة المرء المسلم لأخيه بظهر الغيب مستجابة، عند رأسه ملك موكّلٌ، كلما دعا لأخيه بخيرٍ قال الملك الموكل به: آمين، ولك بمثل»[٨٩].

ومنها الصدقة: ولها وجهان: أن يكون بذلها علنًا، أو يكون سرًا، قال تعالى: ﴿إِنْ تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِنْ تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَيُكَفِّرُ عَنْكُمْ مِنْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾[٩٠]. وفي حديث السبعة الذين يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله: «..ورجلٌ تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه»، وهذه تسمَّى «صدقة السر»[٩١].

امتاز إخفاء الصدقة على إبدائها بفضل الأجر عند الله، وبتكفيره عن سيئات المنفق، لأمور منها: أن إخفاءها أكثر دلالة على الإخلاص لله، وأبعد عن تسرب الرياء

---

[٨٧] سورة الحجرات، الآية ١٢.

[٨٨] رواه الشهاب، كما في: المطر: قبس من نور محمد ﷺ، الحديث رقم ١٧٣٩، ص٣٥٥. وعزاه العجلوني: كشف الخفاء، الحديث رقم ٢٦٣٦، ج٢، ص٣٩١، إلى رواية أبي داود، وكذا في المعجم المفهرس لونسنك.

[٨٩] المنذري: مختصر صحيح مسلم، الحديث رقم ١٨٨٢، ص ٥٦١.

[٩٠] سورة البقرة، الآية ٢٧١.

[٩١] المنذري: مختصر صحيح مسلم، الحديث رقم ٥٣٧، ص ١٦٧.

www.mtenback.com

إلى قلب المنفق، وأن في إخفائها سترًا لحال آخذ الصدقة، فكثير من الفقراء مستوري الحال يؤلمهم علمُ الناس بحاجتهم لأخذ الصدقات[٩٢].

ورد في الحديث عن النبي ﷺ أنّ ثلاثة يحبهم الله منهم رجلٌ أتى قومًا فسألهم بالله و لم يسألهم بقرابة بينه وبينهم فمنعوه، فتخلّف رجل بأعقابهم فأعطاه سرًا لا يعلم بعطيته إلا الله والذي أعطاه[٩٣].

وروي عن الإمام علي قوله: '«صدقة السر مثراة في المال»[٩٤]. وقال جعفر بن محمد: «حسن الجوار عمارة للدار، وصدقة السر مثراة للمال»[٩٥].

ومن أحسن ما يروى في صدقة السر أنّ رجلاً اسمه أبو عثمان المغربي قال يومًا على المنبر: عليّ ألف دينار، وقد ضاق صدري. فمضى رجل إليه في الليل بألف دينار، وقال: اقض دَينك. فلما صعدِ المنبر ثانية قال: نشكر الله لفلان فإنه أراح قلبي وقضى ديني، فقام الرجل فقال: أيها الشيخ ذلك المال كان لوالدتي وقد شقّ عليها ما فعلت، فإن رأيت أن تتقدم برده فافعل. فلما كان الليل عاد إليه، وقال له: لماذا شهرتني بين الناس؟ فأنا ما فعلتُ ذلك لأجل الخلق، فخذه ولا تذكرني[٩٦]. ومن أصناف كتم السرّ كتم الإيمان بين الكافرين: درءًا لمفسدة القتل وآفة الهلاك، وقد ذكر الفقهاء أنه لا يجب شرعًا لكنه يجوز لمن اختاره. وورد أن آية: ﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ

---

[٩٢] الميداني، عبد الرحمن حسن حنبكة: الأخلاق الإسلامية وأسسها، دمشق، بيروت، دار القلم، ط١، (١٣٩٩هـ /١٩٧٩م)، انظر: ج٢، ص٤١٥-٤١٦.

[٩٣] الترمذي: سنن الترمذي، انظر: الحديث ٢٥٧١، ج ٢ ص ٢٤٣.

[٩٤] تيمور: علي بن أبي طالب، شعره وحكمه، ص ٤٤.

[٩٥] ابن قتيبة الدينوري، عبد الله بن مسلم، أبو محمد: عيون الأخبار، القاهرة، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والطباعة والنشر، (د.ت)، ج٣، ص٢٣.

[٩٦] ابن الجوزي: صيد الخاطر، انظر: ص٣٠٨-٣٠٩.

www.mtenback.com

بِالإِيمَانِ﴾[٩٧] نزلت في عمار بن ياسر، أخذه المشركون فعذبوه فلم يتركوه، حتى سبّ النبي ﷺ وذكر آلهتهم بخير، فأتى النبي فشكا له، فقال ﷺ: كيف تجد قلبك؟ قال: مطمئنًا بالإيمان، قال: فإن عادوا فعُد لهم[٩٨]. ونقرأ في سورة غافر: ﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلاً أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ وَإِنْ يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ﴾[٩٩] في هذا المثال القرآني صان هذا الرجل المستخفي بإيمانه حياته، وكان عونًا لموسى عليه السلام، وعينًا للحق في صفوف أعدائه.

ومنها ستر النعمة درءًا للحسد والأذى: يتباهى كثير من الناس بنعم الله عليهم، ليس من قبيل ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾[١٠٠]، ولكنْ جهالة واغترارًا بعرض من الدنيا، فيستثيرون أحقاد الناس وحسدهم. وغاب عنهم أن الكسب الحقيقي هو المحبة العفوية التي يمكن أن يمنحها الآخرون عن طيب خاطر بالتواضع والتودّد إليهم، لا بالتعالي والترفّع.

وكانت عادة العقلاء أن يستروا نعم الله، إذا كان الحديث عنها سيسبّب الألم والأذى. ونقرأ في كتاب الله: ﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ قَالَ يَا بُنَيَّ لا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا﴾[١٠١].

---

[٩٧] سورة النحل: ١٠٦.

[٩٨] ابن الأثير، علي بن محمد، أبو الحسن الجزري: أُسْد الغابة في معرفة الصحابة، تحقيق وتعليق: محمد البنا ومحمد عاشور ومحمود فايد، القاهرة، دار الشعب، ج٤، ص١٣٠-١٣١.

[٩٩] سورة غافر، الآية ٢٨.

[١٠٠] سورة الضحى، الآية ١١.

[١٠١] سورة يوسف: الآيتان ٤-٥.

www.mtenback.com

وفي الحديث: «استعينوا على إنجاح حوائجكم بالكتمان، فإنّ كل ذي نعمة محسود»[١٠٢]. ومن طريف ما يروى أنّ إسحق الموصلي أنشد الأصمعي شعرًا له على أنه لشاعر قديم فقال الأصمعي: هذا والله الديباج[١٠٣] الخسرواني. فقال إسحق: إنه ابنُ ليلته. قال: لا جرم أنّ أثر التوليد فيه! فقال إسحق: لا جرم أنّ أثر الحسد فيك!![١٠٤] إنها معادلة صعبة: الإنسان السويّ يفرح بنعمة جديدة، ويسرّه أن يشاركه الآخرون فرحته – أو أن يتعالى عليهم – فينشر خبره مسرورا، فيكسب الحسد والعداوة الباطنة أو الباطنة والظاهرة.

ومن أنواعه كتم العداوة وكظم الغيظ: لفوائد عدة منها أن لا فائدة من كسب عدو جديد، بل يجب التحصن من كيده وحيلته، وتطهير القلب – ما أمكن – من نيران البغضاء لِما تثبته المجاهرة بالعداوة من كراهية وقطيعة. ومنها أن الرجل صاحب المروءة يستر ما في قلبه ويتغاضى عمّا يصيبه صونًا لشرفه وكرامته. قال تعالى: ﴿وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾[١٠٥]. قال الإمام الشافعي[١٠٦]:

لَما عَفَوْتُ وَلَمْ أَحْقِدْ عَلَى أَحَدٍ ... أَرَحْتُ نَفْسِيَ مِنْ هَمِّ العَداواتِ

إِنّي أُحَيّي عَدُوّي عِنْدَ رُؤْيَتِهِ ... لأَدْفَعَ الشَّرَّ عَنّي بِالتَّحِيّاتِ

وَأُظْهِرُ البِشْرَ لِلإِنْسانِ أُبْغِضُهُ ... كَأَنَّما قَدْ حَشا قَلْبِي مَحَبَّاتِ

---

[١٠٢] رواه الطبراني وأبو نعيم بسند ضعيف؛ كما في: العجلوني: كشف الخفاء، الحديث رقم ٣٤٢، ج١، ص١٣٥.

[١٠٣] الديباج: الثياب المتخذة من الحرير.

[١٠٤] النشاشيبي: نُقل الأديب، ص ١٢١.

[١٠٥] سورة آل عمران، الآية ١٣٤.

[١٠٦] الإمام الشافعي: ديوان الشافعي، ص ٢٨.

www.mtenback.com

ومنها ستر الطاعات خوفًا من الرياء: وتحقيقًا لمعنى الإخلاص في العمل. وقد كره المعرفة والشهرة بالخير أئمة كبار، كإبراهيم النخعي الذي استأذن عليه رجل وهو يقرأ فأطبق المصحف، وقال: لا يرى هذا أني أقرأ كلّ ساعة، وكان أحدهم يمرّ بالأذى ما يمنعه من رفعه إلا كراهة الشهرة، وكان أحدهم يأتيه البكاء فيصرفه إلى الضحك مخافة الشهرة، وكان أحدهم يبيّت عنده الزوار فيدع قيام الليل مخافة الشهرة[١٠٧]. وخلاف ذلك أن يُظهر أداءه للطاعات ويعلن تقديم القربات. وهذا يثير سخرية السامعين واشمئزازهم،إذ يعرفون مراءاته وكذبه، ويرون ما لا يراه من نفسه، من النفاق والسخف.

رَوَوا أن رجلاً كان قائمًا يصلي، فأخذ قوم يمدحونه ويصفونه بالصلاح وهو يسمع، فقطع الصلاة، وقال: وأنا مع هذا صائم![١٠٨] وذكر التوحيدي أن عبد الأعلى السلمي كان قاصًا، فقال يومًا، يزعمون أنّي مُراءٍ، وكنتُ بالأمسِ واللهِ صائمًا، وقد صُمتُ اليوم وما أخبرتُ بذلك أحدًا[١٠٩].

ولا شك أن هنالك منهجًا وسطًا في ذلك يتعهَّد الإنسان فيه نيّته دون أن يبالغ في الحالتين.

ومما يصلح فيه كتم العلم كتمه عن غير أهله: ويستتبع مخاطبة الناس بما يعرفون. وقد قيل: حرامٌ على عالِمٍ قويٍّ الجوهر، أدرك بجوهريته وصفاء نحيزته[١١٠]. علمًا

---

[١٠٧] المحاسبي، الحارث بن أسد، أبو عبد الله: الرعاية لحقوق الله، تحقيق: عبد القادر عطا، بيروت، دار الكتب العلمية، ط٤، (د.ت)، انظر: ص٢٦٦ وما بعدها.

[١٠٨] ابن حجّة الحموي، تقي الدين: ثمرات الأوراق، تعليق: محمد أبو الفضل إبراهيم، القاهرة، مكتبة الخانجي، ط١، (١٩٧١م)، ص١٩٩.

[١٠٩] التوحيدي، البصائر والذخائر، ج٤، ص٧٩.

[١١٠] النحيزة: الطبيعة.

www.mtenback.com

أطاقه، فحمله أن يرشح به إلى ضعيف لا يحتمله فإنه يفسده[١١١]. وفي الحديث: «أُمِرْنا أن نكلم الناس على قدر عقولهم»[١١٢]. وقال ابن مسعود: ما أنت بمحدث قومًا حديثًا لا تبلغه عقولهم إلا كانت فتنة لبعضهم[١١٣].

وإن من إكرام العلم أن يرتفع به عن التشدق والمماراة خصوصا مع الجهلة والمتعصبين، وأن يصونه في أهله، فلا ينثره إلا عزيزا مطلوبا، قال يحيى بن أكثم: إن من إهانة العلم أن تجاري فيه كل من جاراك[١١٤]. وقال الإمام الشافعي[١١٥]:

فَمَنْ حَوى العِلْمَ ثُمَّ أَوْدَعَهُ ... بِجَهْلِهِ غَيْرَ أَهْلِهِ ظَلَمَهْ

فَوَاجِبٌ صَوْنُهُ عَلَيْهِ كَمَا ... يَصُونُ فِي النَّاسِ عِرْضَهُ وَدَمَهْ

فتلك نماذجُ لأحوالٍ وأنواع من الكتمان الحميد وردت إشارات إليها في نصوص الكتاب والسنة. وثمة أنواع أخرى حميدة مطلوبة، لا يحتاج الإنسان فيها لنصّ دينيّ حتى يتستّر ويتكتّم، لأن حدسه الطبيعي وسعيه الفطري لحفظ نفسه، يتكفّل بدفعه إلى ذلك! «وقد تشعب السرّ الذي تجب عليه المحافظة ويلام المذيع له المفرط في كتمانه، وتنوعت مذاهبه التي أشدها السرّ المغلق، الذي يضمره الإنسان في نفسه ولو كلّفه ذلك همومًا عظيمة»[١١٦] ومن هذه الأنواع:

---

[١١١] المقدسي: الآداب الشرعية والمنح المرعيّة، ج ٢ ص ١٦٤.

[١١٢] رواه الديلمي بسند ضعيف؛ كما في: العجلوني: كشف الخفاء، الحديث رقم: ٥٩٢، ج١، ص٢٢٥.

[١١٣] المقدسي: الآداب الشرعية والمنح المرعيّة، ج ٢ ص ١٦٥.

[١١٤] الجاحظ: البيان والتبيين، ج ٢ ص ١٠٠.

[١١٥] الإمام الشافعي: ديوان الشافعي، ص ٨٠.

[١١٦] انظر: ابن تنباك، د. مرزوق بن صنيتان: السرّ كما صوره تراثنا العربي، ص١.

www.mtenback.com

كتم الآراء والاتجاهات الفكرية، إذا كان المرء يخالف ما عليه من حوله، وخصوصًا إذا كان أولئك لا يحترمون الحرية الشخصية والقناعة الذاتية للفرد، ويظنون أنهم وحدهم أصدقاء الحقيقة المطلقة! فيسعون لفرض أفكارهم وآرائهم، ويعادون من خالفهم. في هذا المناخ ينبغي للعاقل أن يكتم آراءه، إن أراد السلامة. فإنه إن أظهرها لن يربح سوى المعاداة والمجافاة، ولن يعدم أن يبغضه مخالف، وأن تُفْرَض عليه مضايقات أيسرها الحصار النفسي! والشواهد العلمية على ذلك لا حصر لها[١١٧]. وربما قضت السلامة بستر ما هو دون ذلك، وليس ثمة داع لإظهار المخالفة للآخرين في آرائهم ومواقفهم ومشاعرهم العاطفية، ما لم تكن مناقضة للشرع أو العقل، وما دامت الحقائق والمفاهيم نسبية ومطّاطة! وإذا رجعنا إلى المألوف من طبع الإنسان وجدنا أنه يأنس لمن يوافقه في تصوراته. وإذا عَهِد من صاحبه الموافقة والرفق والتفهّم، تعلّق به وكشف له سرّه وطلب مشورته، وهذا معلومٌ مجرّب. فالاستشارة كما عرّفها بعضهم: أن نطلب إلى آخر أن يكون رأيهُ من رأينا[١١٨].

ومن أنواع الكتم السنّ والمال: ذكره ابن الجوزي[١١٩]. إذ إن من العجز إفشاء السرّ إلى الولد والزوجة. والمال من جملة السرّ، فاطلاعهم عليه، إن كان كثيرا، فربما تمنّوا هلاك المَورِّث، أو نسبوه في نفقته إلى البخل وطلبوا منه على مقدار كثرته فأتلفته النفقات. وإن كان قليلاً تبرموا بوجوده وطلبوا الراحة منه. وكذلك ينبغي أن يكتم على الناس مقدار سنّه لأنه إن كان كبيراً استهرموه وإن كان صغيراً استحقروه، وقد أنشد محمد بن عبد الباقي البزار:

---

[١١٧] ذكر ابن الجوزي في صيد الخاطر أن الشريف أبا جعفر صرّح في زمان المقتدي بمخالفة الأشاعرة، فأُخذ وحُبس حتى مات، انظر: ص ٢٤٤، وص ٢٩٩.

[١١٨] شيخاني، سمير: مِن حصاد الفكر العالمي، بيروت، دار الآفاق الجديدة، ط٣، (١٤٠٢هـ/١٩٨٢م)، ص١١٨.

[١١٩] ابن الجوزي: صيد الخاطر، انظر: ص٢٣٤، ٢٩٩، ٣٠٠.

www.mtenback.com

احْفَظْ لِسَانَكَ لا تَبُحْ بِثَلاثَةٍ ... سِنٌّ وَمَالٍ مَا اسْتَطَعْتَ وَمَذْهَبِ
فَعَلَى الثَّلاثَةِ تُبْتَلَى بِثَلاثَةٍ ... بِمُمَوِّهٍ وَمُمَخْرِقٍ وَمُكَذِّبِ

ومنها كتم المصائب: والتجلّد للنكبات أمام الناس لئلا يُرى بعين نقص، وأمام أعدائه خاصة كي لا تقرّ عيونهم ولا يشمتوا.. روَوا أنّ عُوّادًا استأذنوا على معاوية وهو في الموت، فقال لأهله: أجلِسوني، فقعد متمكنًا يُظهر العافية، فلما خرجوا أنشد[١٢٠]:

وَتَجَلُّدِي لِلشَّامِتِينَ أُرِيهِمُ ... أَنِّي لِرَيْبِ الدَّهْرِ لا أَتَضَعْضَعُ

مما قاله الإمام الشافعي[١٢١]:

وَلا تُرِ لِلأَعَادِيَ قَطُّ ذُلاًّ ... فَإِنَّ شَمَاتَةَ الأَعْدا بَلاءُ

من المغالاة أن نتصور الإنسان مخلوقًا (حديديًا) مصمتًا، لأن لديه حاجات نفسية واجتماعية تحوجه للتواصل والتراحم، بما يعني كشف أحواله وبث مشاعره، فوجب ألا يظهر منه كل هذا إلا أمام إخوانه ومن هم محلّ ثقته وأمانته. ولمّا كان من أصعب الأشياء أن يتجاوز الإنسان حسّه العاطفي والاجتماعي فقد قيل: أربعٌ من كنوز الجنّة: كتمان المصيبة وكتمان الصدقة وكتمان الفاقة وكتمان الوجع[١٢٢].

ومنها كتم الفقر وسوء الحال: بما يحفظ للإنسان كرامته ويصون ماء وجهه، في مجتمعات بات يغلب فيها الطابع المادي، ويقاس المرء بما يملك من مال وعقار ومظاهر دنيوية. لقد رأى العرب أن القناعة وكتمان الفاقة خير من بذل النفس في سبيل متاع

---

[١٢٠] ابن الجوزي: صيد الخاطر، ص

[١٢١] الإمام الشافعي، ديوان الشافعي، ص ١٦.

[١٢٢] المبرّد الكامل، ج ١ ص ٣٨٦.

www.mtenback.com

الدنيا، فقالوا: «ظمأ قامح[١٢٣] خيرٌ من رِيّ فاضح»[١٢٤]. وفضّلوا التستّر بالتظاهر بالغنى وأسبابه، تصوّنًا عن ذل السؤال وكشف الحاجة. قال حمّاد عجرد[١٢٥]:

إنَّ الكَرِيمَ لَيُخْفِي عَنْكَ عُسْرَتَهُ ... حَتّى تَراهُ غَنِيًّا وَهْوَ مَجْهُودُ

ولا يكتفي كرام النفوس بادعاء الكفاية وإظهار الغنى، بل يجودون على غيرهم بما في أيديهم من قليل، ويشكون فاقتهم إلى الله فيما بينهم وبينه. قال الإمام الشافعي:[١٢٦]

أَجُودُ بِمَوْجُودٍ وَلَوْ بِتُّ طاوِيًا ... عَلى الجُوعِ كَشْحًا وَالحَشا يَتَأَلَّمُ

وَأُظْهِرُ أَسْبابَ الغِنى بَيْنَ رِفْقَتِي ... لِيَخْفاهُمُ حالِي وَإِنِّي لَمُعْدَمُ

وَبَيْنِي وَبَيْنَ اللهِ أَشْكُو فاقَتِي ... حَقِيقًا فَإِنَّ اللهَ بِالحالِ أَعْلَمُ

وربما اشتدت الحاجة بأصحاب نعمة سابقة، وضاقت صدورهم بتغيّر الحال، فلجأوا على استحياء إلى كرام يُحسنون الإعانة والغوث للمحتاجين، دون أن يُفْصِحوا مباشرة عن حاجاتهم، بل تواروا بستر جميل تؤمنه مفردات اللغة وتأويلاتها اللفظية!! يروى أنّ أبا المحاسن محمد بن نصر مرض، فكتب إلى الملك المعظم شرف الدين بن الملك العادل:

اُنْظُرْ إِلَيَّ بِعَيْنِ مَوْلًى لَمْ يَزَلْ ... يُولِي النَّدى وَتَلافَ قَبْلَ تَلافِي

أَنا كَالَّذِي، أَحْتاجُ ما يَحْتاجُهُ[١٢٧] ... فَاغْنَمْ ثَوابِي وَالثَّناءَ الوافِي

---

[١٢٣] قَمَحَ: رفع رأسه.

[١٢٤] الميداني: مجمع الأمثال، ج ١ ص ٤٤٣.

[١٢٥] ابن قتيبة الدينوري: عيون الأخبار، ج ٣ ص ١٧٨.

[١٢٦] الإمام الشافعي: ديوان الشافعي، ص ٧٦.

[١٢٧] إشارة إلى جُملة صلة الموصول والضمير الذي يعود على الاسم الموصول.

www.mtenback.com

فجاء الملكُ بنفسه إليه يعوده ومعه صُرّةٌ فيها ثلاث مئة، فقال: هذه الصلة وأنا العائد!![١٢٨]

ومن أصناف كتم السر ستر أسرار الحبيبة والزوجة: في عالم الحب يمكن أن يسمى أيُّ شيء بين الحبيبين سرًا، مهما كان تافهًا! ولذا نجد في شعر الغزل والحب كلامًا كثيرًا عن الأسرار التي يتداولها الحبيبان. ويكون ستر هذه، من جانب الرجل غالبًا، علامة صدق وتفانٍ ووفاء. وأول هذه الأسرار هو أصل العلاقة والمحبّة بينهما. قال الشاعر[١٢٩]:

لَعَمْري ما اسْتَوْدَعْتُ سِرّي وَسِرَّها ... سِوانا، حذارًا أنْ تَشِيعَ السَّرائرُ

وَلاَ خاطَبَتْهـا مُقْلَتـايَ بِنَظْـرَةٍ ... فَتَعْلَمَ نَجْوانا العُيُونُ النَّواظِرُ

وَلكِنْ جَعَلْتُ اللَّحْظَ بَيْنِي وَبَيْنَهـا ... رَسُولاً، فَأَدَّى مـا تُجِنُّ الضَّمـائِرُ

لم يحتَج الشاعر للتعبير عن حبّه وشوقه أن يبدي شيئًا مما في قلبه، ولكنه تبادل مع المحبوبة لحظات خاطفة كانت لغة كاملة المفردات، أدّت بينهما ما أرادا من الكلام والوصال.

ومِن أقدم الأسرار التي لا يُغتفر كشفها في تاريخ الحب العربي، التشبيب بالحبيبة وذكر اسمها صراحة في الشعر. وكم حُرِم محبّون من فتياتهم بسبب ذلك التصرف الأهوج! فالتاعت قلوبهم، وتحسّروا طويلاً بعد ذلك، دون فائدة. وهذا السلوك كان مرفوضًا من الحبيبة ومن أهلها ومن المجتمع كله. فمن أمثال العرب قولهم: «زينب سُتْرَةٌ» ويُضرب عند الكناية عن الشيء، قالوا: كانت زينت عجوزًا ولها جوارٍ مغنّيات، وكان ابن زهيمة المدني الشاعر يتعشق بعض جواريها، ثم إن زينب حجَبتْها لشيءٍ بلغها، فقال ابن زهيمة[١٣٠]:

---

[١٢٨] النشاشيبي: نُقل الأديب، ص٥٩.

[١٢٩] الوشّاء: الموشّى، ص٦٢.

[١٣٠] الميداني: مجمع الأمثال، انظر: ج ١ ص ٣١٩.

www.mtenback.com

وَجَـــدَ الفُـــؤَادُ بِزَيْنَبـــا وَجْـــدًا شَـــدِيدًا مُتعِبـــا
أَمْسَـــيْتُ مِـــن كَلَـــفٍ بِهـــا أُدْعَـــى الشَّـــقِيّ المُسْـــهَبا[١٣١]
وَلَقَـــدْ كَنَيْـــت عَـــن اسْـــمِهَا عَمْـــدًا لكَيْـــلا تَغْضَبَـــا
وَجَعَلْـــتُ زَيْنَـــبَ سُـــتْرَةً وَكَنَيْـــتُ أَمْـــرًا مُعْجِبَـــا

وإذا سار الحبّ في مساره الطبيعي باتجاه الزواج، تعقّد الموقف، واتخذت الأسرار صفةً أكثر جدية.

فإذا كان الزواج وحلّ الميثاق الغليظ، كانت الأمانة في السرّ بينهما أعظم والقول فيها أشد. ويصير الكتم هنا طبعًا فطريًا سويًا بالضرورة، وتدل مخالفته على نذالة وانعدام نخوة، وتشير إلى خطأ أخلاقيّ كبير، يستوجب عقوبة شديدة. وقد ورد في الحديث: «إنّ من أشَرّ الناس عند الله منزلةً يوم القيامة الرجل يُفضي إلى امرأته وتُفضي إليه، ثم يَنشُر سِرّها»[١٣٢]. وحتى لو كان النشر لا يتعلّق بالأمور الجنسيّة، بل بنقائص شخصية في زوجته، لدلّ فعله على خسّة وعدم جدارة بحمايتها وصيانتها، ولكان عيبًا كبيرًا في رجولته.

لا يخلو رجلٌ ولا امرأة من عيوب بشرية مختلفة، والحياة الزوجية تكامل وتوادٌّ وتراحم. ومع ذلك يطمح كل رجل وامرأة طموحا مثاليا لأن يحظى بزوج كامل مبرأ من العيوب. ولما علم العقلاء استحالة هذا، كانت الدعوة معقولة لئلا يطلع الزوج أو الزوجة على عيوب زوجه وعورته، وأن يتحاشاها، ما أمكن[١٣٣].

---

[١٣١] المسهَب: المأخوذ الذي يهذي.

[١٣٢] المنذري: مختصر صحيح مسلم، الحديث رقم ٨٣١، ص ٢٤٠.

[١٣٣] ابن الجوزي: صيد الخاطر، انظر: ص ٧٠ - ٧١.

www.mtenback.com

ومن أنواع ستر الحبّ عن الحبيب، وهو سلوك يختاره بعض المحبين تكتيكًا! ربما لأنهم يعلمون ممّن يحبون خلُق الغرور والقسوة والتعالي، فيخشون إذا ما كشفوا له حالهم أن يصيروا أسرى مسترَقين، يعانون من تدلل الحبيب وطغيانه وشروطه، وربما هجْرِه مغالاةً منه في الغطرسة والاستعلاء. لقد نبّه المجرّبون إلى هذا الخطر ونصحوا بكتمان الحبّ والتصريح به لمثل هذا المحبوب. قال الشاعر[١٣٤]:

لا تُظْهِرَنَّ مَوَدَّةً لِحَبِيبِ ... فَتَرى بِعَيْنِكَ مِنْهُ كُلَّ عَجِيبِ

أَظْهَرْتُ يَوْمًا لِلْحَبِيبِ مَوَدَّتِي ... فَأَخَذْتُ مِنْ هِجْرانِهِ بِنَصِيبِ

ومنه ستر الشخص لنقصه وجهله، في حالات كثيرة يرغب أصحاب النقص والتقصير في صون ذواتهم وحفظ مروءاتهم، استجابة لبعض دواعي التعقل في نفوسهم، وتلبيةً لحاجات القبول الاجتماعي المركبة أصلاً في الإنسان الطبيعي، ولكنْ كثيرًا ما يختلط الطيش بالتعقل والجهلُ بالعلم في سلوك بعض هؤلاء، فينكشف المستور ويبين الحال على ما هو. وهنا قد تُطْلَق الأحكام القاسية بحقهم، في نتيجة طبيعية للموقف.. قال أبو حنيفة لرجل: أنتَ مطويًا خيرٌ منك منشورًا![١٣٥] وجاء في فصل المقال أنه كان يجالس الأحنف بن قيس رجل يطيل الصمت حتى أُعجب به الأحنف، ثم إنه تكلم فقال للأحنف: يا أبا بحر، أتقدِر أن تمشي على شُرَف المسجد! فتمثّل الأحنف بهذا البيت[١٣٦]:

وَكائِنْ تَرى مِنْ صامِتٍ لَكَ مُعْجِبٍ ... زِيادَتُهُ أَو نَقْصُهُ فِي التَّكَلُّمِ

---

[١٣٤] ابن الجوزي: صيد الخاطر، ص ٢٩٩.

[١٣٥] التوحيدي: البصائر والذخائر، ج ٤ ص ٥٢.

[١٣٦] البكري، أبو عبيد: فصل المقال في شرح كتاب الأمثال، تحقيق: د. إحسان عباس ود. عبد المجيد عابدين، بيروت، دار الأمانة، مؤسسة الرسالة، ط١، (١٣٩١هـ/١٩٧١م)، انظر: ص٥٢.

www.mtenback.com

وعيبه في هذا السؤال غفلته أو سوء أدبه فقد كان الأحنف معوج الساقين منحرف القدمين ولهذا كان سؤاله منتهى الغفلة وعدم اللياقة في وضع الكلام موضعه ومراعاة حال المخاطب.

ومنه ستره لعيوب جسمه، ولا يحتاج أحد للنُّصح بالتجمل والاعتناء بالمظهر، خصوصًا في عصرٍ بات للمظهر فيه مكانة عظيمة. إن التزين وحب التجمل شيء فطر الله الناس عليه. وقد جاء في الحديث: «إن الله يحبُّ الجمال»[١٣٧]. لا يجهل هذا إلا فاسدٌ في ذوقه ضعيف في حِسّه، معزول عن عالم البشر. وتشتد الحاجة لستر العيوب الجسمانية كلما كان ظهورها أبين وشكلها أشنع. فيسعى لسترها كلُّ مرهف الحسّ دقيق الشعور، ومثله صاحب الجاه الظاهر في مجتمعات الناس ومنتدياتهم.

ذكر المبرّد أنّ واصل بن عطاء – شيخ المعتزلة – كان أحد الأعاجيب، وذلك أنه كان ألثغ قبيح اللُّثغة في الراء، فكان يخلّص كلامه من الراء، ولا يُفطَن إلى ذلك، لاقتداره وسهولة ألفاظه. ففي ذلك يقول الشاعر يمدحه بإطالة الخطب واجتنابه الراء، على كثرة ترددها في الكلام، حتى كأنها ليست فيه[١٣٨]:

عَلِيمٌ بِإِبْدالِ الحُرُوفِ وَقَامِعٌ لِكُلِّ خَطِيبٍ يَغْلِبُ الحَقَّ باطِلُهْ

وربما كان العيب من الظهور بحيث يتعذّر إخفاؤه والتنصّل منه، وهنا تتحرك الذات من أعماقها بقوة للدفاع عن نفسها وتعويض ما عَلِمَت نقصه فيها. وربما انعكست من ذلك على النفس معانٍ إنسانية طيبة كالتواضع والتراحم، أو أحاسيس عدوانية ومشاعر سلبية. ذكر الجاحظ أنه لما دخل ضمرة بن ضمرة، على النعمان بن المنذر، زرى عليه، للّذي رأى من دمامته وقِصره وقلّته، فقال النعمان: تسمعُ بالمُعَيْدِيِّ لا

---

[١٣٧] الترمذي: سنن الترمذي، الحديث رقم ١٩٩٩، ج٦، ص٢١١. وذكر في المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوي حديثًا بنص: «إن الله جميل يحبّ الجمال»، ج١، ص٣٧٣، وعزاه لصحيح مسلم.

[١٣٨] المبرّد: الكامل، ج ٣ ص ٩٢٣.

www.mtenback.com

أن تراه، فقال: أبيتَ اللعن! إنّ الرجال لا تُكال بالقُفزان[١٣٩] ولا تـــوزن بـــالميزان، وليست بمُسوكٍ[١٤٠] يستقى بها، وإنما المرء بأصغريه: قلبه ولســـانه..[١٤١] لقـــد ذبّ المعيديّ عن نفسه ببليغ بيانه وفصيح خطابه.. فهل يا تُرى يقدر كلُّ صاحب عِلّـــةٍ أن يردّ عن نفسه..!؟

ومنه أيضًا سلوكيات استتارية اجتماعية أخرى: تســـتجلب احـــترام النـــاس وتستوجب مودتهم وتنفي شكوكهم، ولا تخرج في مضمومنها عن دراية بمعاملة الناس ومداراتهم، منها: أن يأتي محفلاً فيه جمع من الناس، فيجلس منه دون الموضع الـــذي يستحقه حتى يكون أهل المحفل هم الذين يرفعونه، فتظهر جلالته وعظم قدره.

وأن يُفيض القوم في حديث، عنده منه مثلُ ما عندهم أو أفضل، فيتنافســـون في إظهار ما عندهم، فإن نافسهم كان واحدًا منهم، وإن أمسك اقتضَوْه ذلك، فصـــار كأنه مُمْتَنٌّ عليهم بحديثه، وأنصتوا له ما لم ينصتوا لغيره.

أو أن يتمارى جلساؤه – والمِراء نتاج اللّجاجة – وثمرةٌ أصلها الحميّة. فإن ضبط نفسه كان تحاكُمُهم إليه، ومعوّلُهم عليه[١٤٢].

الوجه السلبي للستر:

إذا كان كتم الأسرار – عمومًا – فيه خيرٌ ومحمدة، فهـــذا يعـــني بالمقـــابل أن كشفها مذمّة وموجب للنقص وسوء التقدير، وإذا كنّا قد ذكرنا بعضًا من أنواع الستر المحمودة؛ فهذا يستوجب، أيضًا، رذائل ومخاطر، يمكن أن تقع فيما لو كُشِفت هـــذه

---

(١٣٩) القُفزان: مفردها القَفِيْز، وهو نوع من المكاييل.

(١٤٠) مُسوك: مفردها، مَسْك، وهو الجلد.

(١٤١) الجاحظ: البيان والتبيين، ج١، ص١٧١.

(١٤٢) الجاحظ: رسائل الجاحظ، انظر: ص ٨٩.

www.mtenback.com

الأستار وسقط عنها الحجاب. وأكثر هذه المحاذير والنتائج واضح معلوم لكل عاقل، لكنّ الهوى وقصر النظر يدفع بالإنسان لكشف أسراره وأسرار غيره التي أؤتمن عليها، اتباعًا لشهوة الغيبة ولفتًا للأنظار، دون تقدير لعاقبةٍ وخيمةٍ وشيكة الوقوع.

لا شك أن النفس يصعب عليها كتم الشيء، وأنها ترى بإفشائه راحة، خصوصًا إذا كان مرضًا أو همًّا أو عشقًا[١٤٣]. وهنا فضل العاقل المتمثل بضبط نفسه وكبح هواها وربما تردّد بين الكتمان والبوح، لما ذكرنا من الأسباب، فينصحه ابن ميّادة قائلاً[١٤٤]:

أَتُظْهِرُ مَا فِي الصَّدْرِ أَمْ أَنْتَ كَاتِمُهْ ... وَكِتْمَانُهُ دَاءٌ لِمَنْ هُوَ كَاتِمُهْ

وَإِضْمَارُهُ فِي الصَّدْرِ داءٌ وعِلَّةٌ ... وَإِظْهَارُه شُنْعٌ لِمَنْ هُوَ عَالِمُهْ

وأدرك بعضهم خطورة الأسرار التي يحملها في صدره، وفظاعة أثرها إذا تمّ لها نشر، فتمنّى لو يستطيع محوَها من صدره ونسيانها[١٤٥]:

وَلَوْ قَدِرْتُ عَلى نِسْيَانِ مَا اشْتَمَلَتْ ... مِنِّي الضُّلُوعُ مِنَ الأَسْرارِ وَالخَبَرِ

لَكُنْتُ أَوَّلَ مَنْ يَنْسى سَرائِرَهُ ... إِذْ كُنْتُ مِنْ نَشْرِهَا يَوْمًا عَلَى خَطَرِ

ومعاوية يعبّر عن أسفه وألمه لما أفشى من سره، حين قال: ما أفشيتُ سِرّي إلى أحد إلا أعقبني طول الندم وشدة الأسف، ولا أودعته جوانحَ صدري فخطمته بين أضلاعي إلا أكسبني ذلك مجدًا وذِكرًا وسناءً ورِفعة، فقيل له: ولا ابن العاص! فقال: ولا ابن العاص[١٤٦].

---

[١٤٣] ابن الجوزي: صيد الخاطر، انظر: ص ٢٣٣.

[١٤٤] الجاحظ: الحيوان، ج ٥ ص ١٨١.

[١٤٥] الجاحظ: الحيوان، ج ٥ ص ١٨٣.

[١٤٦] البيهقي: المحاسن والمساوئ، ج ٢ ص ٨٥.

www.mtenback.com

وقرن العرب في أمثالهم بين سلامة العقل وكتم السرّ، لما علموا من حاجة العاقل إلى صون سرّه، فقالوا في الرجل لا حياءَ عنده: «ماله سِتر ولا عقل»[١٤٧].

ومن أخطر أحوال السر القائمة أنه قابلٌ للانكشاف في أية لحظة، مع أنّ له سورين أو حصنين: مادي ومعنوي! قال المعري[١٤٨]:

وَالسِّرُّ يُظْهِرُهُ الفُؤادُ وَدُونَهُ سِتْرانِ: مِنْ صَدْرٍ لَهُ وَصِرارِ

ومن باب الحيطة اشترطوا لإظهار أمر التوثق من انعدام خطره وكفّ أذاه إن أذيع، فقالوا: مِن وَهْي الأمر إعلانه قبل إحكامه[١٤٩].

وخوفًا من انكشاف الأستار، كانت هناك بعض الوسائل المضادة التي تصلح لستر بعض ما يكون سرًا. فقد نصح العرب أن يقوم الإنسان بما يريد مستترًا بظلمة الليل، لأنّ «الليل أخفى للويل»[١٥٠] وأستَرُ عن العيون والرقباء والفضوليين. وإذا كان المرء صاحب نسب وضيع أو مغمور، وأحب ستر ذلك النسب، ونول مرتبة من الشرف والجاه، فلا أحسن له من أدب وخُلُق وثقافة لأنّ «حُسْنَ الأدب يستر قبيح النسب»[١٥١].

إذا كان كشف السرّ في أكثر أحواله سيّئ العاقبة، فلعلّنا نحصي بعضًا من مساوئ كشفه، التي لا يغيب إدراك بعضها عن الجاهل بغريزته، ولا معرفة بعضها الآخر عن العاقل بحكمته.

---

[١٤٧] الميداني: مجمع الأمثال، ج ٢ ص ٢٨٦.

[١٤٨] المعرّي: ديوان لزوم ما لا يلزم، ج١ ص ٤٩٦.

[١٤٩] ابن قتيبة الدينوري: عيون الأخبار، ج ١ ص ٤٠.

[١٥٠] الميداني: مجمع الأمثال، ج ٢ ص ١٩٣.

[١٥١] تيمور: علي بن أبي طالب، شعره وحكمه، ص ٣٨.

www.mtenback.com

أوّل مذام إفشاء السر؛ دلالته على ضيق صدر صاحبه وقلة صبره، وعلى غفلته واغتراره وسوء تقديره. لأن سر المرء من دمه، فإذا تكلم به فقد أراقه[١٥٢].

ولا يلبث كثير من الأسرار الشخصية المثيرة للفضول والاطلاع، أن تنتشر انتشار النار في الهشيم، بعد أن يتفوه بها صاحبها لصديق (حميم) أو مستشار (موثوق) أو زوجة وولد.. فيضيع السر بين الناس ويفشو، ولا يعود سرا، لأن صاحبه كان أول مضيّع له، قال الشاعر[١٥٣]:

إِذَا أَنْتَ لَمْ تَحْفَظْ لِنَفْسِكَ سِرَّها فَسِرُّك عِنْدَ النّاسِ أَفْشى وَأَضْيَعُ

وكم من لحظة ضعف تعتري المرء فيبوح بسره لصديق أو زوجة، طلبًا للراحة والأنس. فإذا سرّه قد صار قيدا و أسرًا له، ولا يعود يجرؤ على مخالفة كاتم سره أو إغضابه. وإذا كان الكاتم زوجته فربما تحكّمت بأمره ورهنته بسرّه، ولو شاء أن يطلّقها ما قدر!، وإذا ظهر السر فقد صاحبه سلطانه عليه، ولم يقدر على ضبطه وإخماده. قال ابن نباتة السعدي[١٥٤]:

صُنِ السِّرَّ عَنْ كُلِّ مُسْتَخْبِرٍ وَحاذِرْ فَما الحَزْمُ إلاَّ الحَذَرْ
أَسِيرُكَ سِرُّكَ إِنْ صُنْتَهُ وَأَنْتَ أَسِيرٌ لَهُ إِنْ ظَهَرْ

فإذا ظهر السر وانكشف أمر صاحبه، صار الرجل مُضغة في الأفواه ومحلاً للانتقاد وعبرة لأصحاب الاعتبار، وفرح بافتضاحه خصومه وطمعوا بتحطيمه والإجهاز عليه، وكثر الشامتون والحاقدون الجبناء. وقد قالت العرب: «من أفشى سرّه كثر المتآمرون عليه»[١٥٥].

---

[١٥٢] الماوردي: أدب الدنيا والدين، انظر: ص ٢٩٦.

[١٥٣] الوشّاء: الموشّى، ص ٦١.

[١٥٤] الوطواط: غرر الخصائص الواضحة، ص ١٨٣.

[١٥٥] الجاحظ: رسائل الجاحظ، ص ٨٩.

www.mtenback.com

فإذا صار هذا حاله فمن يُعينه؟ يعينه أصحابه وإخوانه وذووه، فيحيطون به مستطلعين حقيقة الأمر، ثم يروحون ليردوا عنه الأفواه، كلٌّ حسب فهمه ورأيه، فبين منقّصٍ ومُتزيّد ومفسِّر! و«كلما كانت إذاعته لأسراره أكثر كان عدد مواليه أكثر، وشقاؤه بخدمتهم أدوم»[١٥٦].

وإذا فشا السر وتناقله الناس، تدخلت فيه الفهومُ والآراء، وتلوّن بألوان مختلفة. وزِيد فيه ونُقِص، ونهشت فيه مشاعر الحاقدين والحسّاد، فصار مزيجًا من كذب مشوّه، وسقطت هيبة صاحبه، وضاعت مروءته. قال الشاعر[١٥٧]:

وَالسِّرَّ فَاكْتِمْهُ وَلا تَنْطِقْ بِهِ ... فَهُوَ الأَسِيْرُ لَدَيْكَ إِذْ لا يَنْشَبُ

وَكَذاكَ سِرُّ المَرْءِ إِنْ لَمْ يَطْوِهِ ... نَشَرَتْهُ أَلْسِنَةٌ تَزِيدُ وَتَكْذِبُ

من الستر ستر العورة والتستر حتى في الخلوة، مادام الإنسان يحيا في مجتمعٍ يستلهم أخلاقه وتشريعاته من الدين الحنيف، وينزع بفطرته إلى التأدب والستر والحياء. فيكون التكشّف مثاراً للنقد والاستهجان، ويكون الاطلاع على عورات الآخرين جريمة تستحق العقاب. ورد في الحديث: «ما من امرأة تضع ثيابها في غير بيت زوجها إلا هتكت السّتر بينها وبين ربها»[١٥٨]. وورد: «لو أنّ رجلاً اطّلع عليك بغير إذن فحذفته بحصاة ففقأت عينه، ما كان عليك من جُناح»[١٥٩]. وذكر التوحيدي أنّ الشعبي دخل الحمّام وفيه رجل حاسر فغمض عينيه، فقال له الرجل: يا شيخ، متى ذهبت عينُك؟ فقال: مذ أبدى الله عورتك![١٦٠].

---

[١٥٦] الجاحظ: رسائل الجاحظ، انظر: ص ١٠٧.

[١٥٧] قبّش: مجمع الحكم والأمثال في الشعر العربي، نسبهما إلى الإمام علي، ص ٤٣٨.

[١٥٨] الترمذي: سنن الترمذي، الحديث رقم ٢٨٠٤، ج ٨ ص ٣٤.

[١٥٩] المنذري: مختصر صحيح مسلم، الحديث رقم ١٤٢٥، ص ٤٢٢.

[١٦٠] التوحيدي: البصائر والذخائر، ج ٣ ص ١٨٤.

www.mtenback.com

كان التكشف، ولا زال، عند أصحاب الحياء، سببًا للحرج ومثارًا للخجل. وربّما ظنّ بعضُهم نفسه مستورا ثم تبيّن له أنه عريانُ! يروى أنّ فقيرًا نادى على جُبّةٍ له فلم تُطلب بشيء، فقال: ما علمتُ أني عُريانُ إلا الساعة![١٦١].

خطر إفشاء السر:

لا شك أن إفشاء أسرار الناس إفساد لأخلاقهم، ونيل من كرامتهم وعدوان على خصوصياتهم، ومن فضح سرّ إنسان أسهم في إضعاف معنوياته وهدم شعوره بكيانه واحترامه لنفسه. وإذا سقط اعتبار المرء لنفسه في المجتمع تداعت شخصيته، وسقطت منظومة الأخلاق التي تصون مروءته، ولم يعد شيء يردعه عن فعل قبيح مستهجن. وقد ورد في الحديث: «إنك إن اتبعتَ عورات الناس أفسدتهم أو كدتَ أن تفسدهم»[١٦٢].

من أنواع الستر والأسرار المذمومة:

ثمةَ وجوه يكون فيه الكتمان عملاً سلبيًا لا يحقق نفعًا، بل ينعكس بالأذى ويرتد بالظلم على طوائف من الناس، وقد يكون منهم صاحب السر نفسهُ. وكثير من هذه الحالات أشارت إليها نصوص الشرائع والأديان في شمولها لحاجات الإنسان وتلبيتها لمصالحه، في نظام وضوابط. وهناك حالاتٌ أفرز الحديث عنها خبرة الشعوب وآثار الحكماء وأصحاب البلاغة والبيان.. ومن هنا يكون الستر والكتمان مذمومًا ومحظورًا من الناحية الشرعية في حالاتٍ منها:

حرمة المجالس وما يكونُ فيها ويتداول: فالأصل في الشرع حُرمة أسرار الناس وعدم جواز نشرها، وذلك تحقيقًا لمصلحة مقدرة. لكن حفظ أسرار الناس مشروط بألا

---

[١٦١] التوحيدي: البصائر والذخائر، ج ٤ ص ٤٥.

[١٦٢] أبو داود: سنن أبي داود، الحديث رقم ٤٨٨٨، ج ٥، ١٩٩.

www.mtenback.com

يؤثر على حق عام أو خاص للفرد أو المجتمع؛ فإذا أثّر على شيء من ذلك، كان التستر على ما فيه إضرار بهما أو بأحدهما خيانةً. و لم يكن هذا التستر من حفظ الأمانة[١٦٣]، ويؤكد هذا المعنى ما ورد في الحديث: «المجالس بالأمانة إلا ثلاثة مجالس: سفك دم حرام، أو فرج حرام، أو اقتطاع مال بغير حق»[١٦٤]. ولا حرمة لأيّ سرٍّ يُظلم بستره إنسان وتنبني على كتمانه مفسدةٌ أعظم من كشفه.

كتم الشهادة في اللغة: شهِد الأمر أي حضَره، وشاهده: عاينه، والشهادة هي خبر قاطع يتحصل للإنسان[١٦٥]. وهذا الخبر أو الشهادة مسؤولية يجب تبليغها لمن تتعلق مصلحته بها، في حدود ما يتحقق به أمرٌ شرعيّ، ويندفع به ظلم إنسان ويُرَدُّ به حقه إليه. وكتم الشهادة المطلوبُ أداؤها شر عظيم يتناسب والضرر المترتب على كتمانها. وبالمقابل فإنّ شهادة الزور سبب لعقاب إلهي لا رحمة فيه.. وقد كانت آيات القرآن الكريم واضحة في الكلام على مسؤولية أداء الشهادة بأنواعها. قال تعالى: ﴿وَلاَ تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ﴾[١٦٦]. فخصّ الله القلب بالذكر، إذ الكتمُ من أفعاله، وأمر بالإشهاد والكتابة في البيوع لمصلحة حفظ الأموال والأديان ولمراعاة صلاح ذات البين ونفي التنازع[١٦٧]. وقال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا

---

(١٦٣) الميداني: الأخلاق الإسلامية وأسسها، انظر: ج ٢ ص ٣٤٦.

(١٦٤) أبو داود: سنن أبي داود، الحديث رقم ٤٨٦٩، ج ٥ ص ١٨٩.

(١٦٥) الزبيدي: تاج العروس، انظر: ج ٨ الصفحات ٢٥٢، ٢٥٣، ٢٥٦.

(١٦٦) سورة البقرة، الآية ٢٨٣.

(١٦٧) القرطبي، محمد بن أحمد، أبو عبد الله: الجامع لأحكام القرآن، القاهرة، دار الكاتب العربي، ط٣، (١٣٨٧هـ/١٩٦٧م)، انظر: ج٣، ص٤١٥- ٤١٦، أيضا: ابن حجر الهيتمي، شهاب الدين: الزواجر عن اقتراف الكبائر، بيروت، دار الفكر، (١٤٠٣هـ/١٩٨٣م)، جزآن، انظر: ج٢، ص١٩٤.

www.mtenback.com

الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ﴾[١٦٨]. نقل القرطبي في تفسيره؛ قال: هي في كلِّ من أُوتي علمَ شيء من الكتاب. فمن علم شيئا فليعلّمه[١٦٩].

وكتمان الشهادة، كما ذكرنا، جريمة إذا ترتب عليه مفسدة خاصة أو عامة، فمن ستر، مثلا، على مجرم مخرّب للاقتصاد، فهو شريكه في الجُرم. وورد في الأثر: «من كتم غالا[١٧٠] فإنه مثله»[١٧١].

ومثل كتم الشهادة كتم العلم النافع مهما كان موضوعه، لأن ذلك يعد مفسدة بعاقب عليها صاحبها ما دام العلم قابلاً للنشر والإذاعة وفي مناخ يقبله ويحتاجه. ورد في الحديث الشريف: «مَن سئل عن علم فكتمه ألجمه الله بلجام من نار يوم القيامة»[١٧٢].

وإذا كان العلم المكتوم يتعلق بصلاح الناس وهدايتهم إلى الدين القويم والسلوك السليم، كانت العقوبة على كتمه أشدّ وأقسى. قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللاَّعِنُونَ﴾[١٧٣].

ولا تقتصر العقوبة على الجزاء الإلهي، فصاحب العلم لا يفيد بكتمه شيئًا؛ فلا ينال بين الناس توقير أهل العلم، ولا يأمن على علمه من النسيان لقلّة مرانه به وعدم

---

[١٦٨] سورة آل عمران، الآية ١٨٧.

[١٦٩] القرطبي: الجامع لأحكام القرآن، ج٤، ص٣٠٤ -٣٠٥.

[١٧٠] الغالّ: المختلس أو المحتكر.

[١٧١] أبو داود: سنن أبي داود، الحديث رقم ٢٧١٦، ج٣ ص١٥٩.

[١٧٢] أبو داود: سنن أبي داود، الحديث رقم ٣٦٥٨، ج ٤ ص ٦٧.

[١٧٣] سورة البقرة، الآية ١٥٩.

www.mtenback.com

مراجعته لمسائله ومذاكرته مع طلابه. فيصدأ في صدره ويغدو به كالجاهل. قالت العرب في أمثالها: «من كتم علمًا فكأنما جهله»[١٧٤]. كما جعل بعضهم كتم العلم دليلاً على فساد الزمان وانحلال المجتمع وسيره نحو الانحطاط والضياع. قال عمر ابن الخطاب رضي الله عنه لرجل: لا أدركتُ أنا ولا أنت زمانًا يتغاير الناس فيه على العلم كما يتغايرون على الأزواج[١٧٥].

كتم الحق عامّةً: سخر العرب وعجبوا ممّن يحتال للكذب على الحق وطمسه، فقالوا فيمن يستر الحقَّ الجليّ الواضح: «يطيِّن عينَ الشمس»[١٧٦]. إنّ كلمة الحق جليلةٌ ذاتُ وقع عميق في نفس كل إنسان، وربما هابها الطالح قبل الصالح. وقد وصف أحمد بن إسماعيل الحقَّ، في رقعةٍ بعث بها إلى ابن المعتز، جاء فيها: «لم أرَ كالحقّ.. إن حاول صاحبه بيعَه بارت سلعته، وإن رام ستَره زادت ظُلمتُه، لايقارنه البرهان ولايفارقه الخذلان..»[١٧٧].

وإذا حادت فطرةٌ بشريّة عن سوائها فأحبّت الباطل وكرهت الحق وأرادت طمسه عن العيون، لم يبق لإصلاحها سوى التذكير الدائم بالمنهج الأخلاقي الربّاني وعواقب مخالفته. قال تعالى: ﴿وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾[١٧٨].

ومن مساوئ الكتمان ما يكتمه ولاة السلطان عنه، حيث يحيط بالسلطان حاشية متملقون يداهنون له وينافقون ؛ يُظهرون مايسّره ولو كان كذبًا واختلاقًا،

---

[١٧٤] الميداني، مجمع الأمثال، ٢ ص ٣٣٠.

[١٧٥] الجاحظ: البيان والتبيين، ج ٣ ص ٢١١.

[١٧٦] الميداني: مجمع الأمثال. ج٢، ص٤٢٦.

[١٧٧] التوحيدي: البصائر والذخائر. ج١، ص٧١.

[١٧٨] سورة البقرة. الآية ٤٢.

www.mtenback.com

ويخفون عنه حقًا ونصيحةً ولو كان في فعلهم خرابٌ للأمة وجناية عليها. وأكثر هؤلاء يدركون ضَعة نفوسهم وخسّة مقصدهم. قال أحدهم[١٧٩]:

أَلَـمْ تَـرَ أَنِّـي أَزُورُ الوَزِيـرَ ... فَأَمْدَحُـهُ ثُـمَّ أَسْـتَغْفِرُ

فَـأُثْنِي عَلَيْـهِ وَيُثْنِـي عَلَـيَّ ... وَكُـلٌّ بِصاحِبِـهِ يَسـخَرُ

وحين يكون عمّال الحاكم في الولايات فاسدين مفسدين، فـإنهم يسـخّرون مناصبهم لقضاء مصالحهم الخاصة، ولايبلّغون وليّ الأمر من الأخبـار إلا مايرضيـه. وتغفل عينه عنهم ويسري المرض رويدًا رويدًا في جسم الأمّة. ذكر النشاشيبـي أنـه ولي مصر عيسى بن منصور فانتفضت أسفل الأرض عربها وقبطها، وأخرجوا العمـال وخالفوا الطاعة. وكان ذلك لسوء سيرة العمال، فسخط المأمون على عيسى وأمر بحلّ لوائه، وقال: لم يكن هذا الحدث العظيم إلا عن فعلك وفعل عمّالك، حمّلتُم الناس مـا لا يطيقون وكتمتموني الخبر حتى تفاقم الأمر واضطرب البلد[١٨٠].

وإن الحاكم العاقل لايدع نفسه بحال تخفى فيها عنه حال الشعب، بـل يفتـح أبواب الاتصال بينه وبينهم، فيكسب رضا ربّه وحُب أُمّته. يروى أنّ أنوشروان قال: قد خِفتُ أن يُحجب عني المظلوم. فعلّق على أقرب البيوت إلى بيته سِترًا، وعلّـق عليـه الأجراس، ونادى مناديه: من ظُلِم فليحرّك هذا الستر حتى أسمع صـوت الأجـراس فأدعو به[١٨١].

وهكذا فاتصال الحاكم برعيّته وقيامه على مصالحهم وشؤونهم، سـبب محبـةٍ ومديح وشكرٍ من الناس له. وهاهو ابن عبدل يمتدح بشر بن مروان، فيقول: إن بابـه

---

(١٧٩) النشاشيبـي: نقل الأديب. ص١٤٠.

(١٨٠) المصدر السابق، ص ١٤٧.

(١٨١) التوحيدي: البصائر والذخائر ج٦، ص٦٣.

www.mtenback.com

مكشوف لايستتر دون ذوي الحاجات، ولو شاء لحال دونهم أسوارٌ من الجند الصناديد[١٨٢]:

وَلَوْ شَاءَ بِشرٌ كانَ مِنْ دُونِ بابِهِ ... طَماطِمُ سُودٌ أَوْ صَقالِبَةٌ حُمْرُ
وَلَكِنَّ بِشْرًا سَهَّلَ البابَ لِلَّتِي ... يَكُونُ لِبِشرٍ غِبُّهَا الحَمْدُ وَالأَجْرُ
بَعِيدُ مُرادِ العَيْنِ مَارَدَّ طَرْفَهُ ... حِذارَ الفَواشِي بَابُ دارٍ وَلا سِتْرُ

ستر الفضل والنعمة:

لا يكون من المنصف العادل إلا الاعتراف بفضل المتفضّل وأداء الشكر إليه. وأولى صاحب فضل بالشكر هو الله سبحانه، فقد خلق للإنسان من كل شيء وآتاه من خيرات الأرض وبركاتها ما يعجز عن أداء شكره.. والسؤال المطروح: هل يجهر الإنسان بنعم الله عليه ويعدّدها أمام الناس أم يكتمها؛ خاصةً أننا نقرأ قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾[١٨٣]. والجواب: إن تقدير الأصلح هو مايقرّر الجهر أو الكتم، لاسيما أن الجهر بالحديث عنها، كثيرًا ما يكون مباهاةً ومفاخرةً وتعاليًا مبطنًا ؛ وإن أُلبس الشكر والعرفان بالجميل. وقد مرّ معنا أنّ يوسف عليه السلام قصّ على والده رؤيا رآها تبشّر بخيرٍ عظيم يفد عليه، فنصحه بكتمان الأمر عن إخوته.

على أنّ الجهر بالشكر على نِعَمِ الله بعامتها مطلوبٌ، وفيه اعتراف بإنعام المنعم، وتربية للنفس، وتذكيرٌ للآخرين بالمنعم الأول.

وأمّا فضل الآخرين وعطاؤهم، فمن المروءة شكره والثناء على صاحبه أمام مَن ينتفع بذكره لديهم. ففي الحديث: «من أوتي معروفًا فليذكره، فمن ذكره فقد شكره، ومَن كتمه فقد كفره»[١٨٤].

---

[١٨٢] الجاحظ: البيان والتبيين ج٣، ص٣١٠.

[١٨٣] سورة الضحى: الآية ١١.

[١٨٤] رواه الطبراني؛ كما في: المطر: قبس من نور محمد ﷺ. الحديث رقم: (١١٩٤)، ص٢٦١.

www.mtenback.com

وإذا كان واجب مَن ناله الفضل أن يشكر المتفضل، فليس للثاني أن يذكر فضله على الأول ويمنّ به ويذيعه.. قال أبو نواس: ذكر المعروف من المنعم إفسادٌ له، وكتمانه من المنعم عليه كفرٌ له[١٨٥]. وقال عروة بن أذينة الليثي[١٨٦]:

لا تَتْرُكَنْ، إنْ صَنِيعَةٌ سَلَفَتْ ... مِنْكَ وَإنْ كُنْتَ لا تُصَغِّرُها

إلَى امْرِئٍ، أنْ تَقُولَ إنْ ذُكِرَتْ ... عِنْدَكَ فِي الجِدِّ: لَسْتُ أذْكُرُها

فَإنَّ إحْياءَها إمَاتَتُها ... وَإنَّ مَنًّا بِها يُكدِّرُها

وَإنْ تَوَلَّى امْرُؤٌ بِشُكْرِ يَدٍ ... فَاللهُ يَجْزِي بِهَا وَيَشْكُرُها

إن نجاح الفعل الصالح هنا، في خيريته وفائدته الاجتماعية، يعتمد على إخلاصٍ وصدقٍ متبادَلَين بين أداءٍ للمعروف وحسن شُكرٍ له. وإذا انقطعت بعض شروطه، بقلّة درايةٍ أو سوء أدب، ترك في الغالب آثارًا سيئةً تحز في النفس، وتقطع دابر المعروف بين الناس. لذا فواجب الإنسان الصادق أن يؤدي المعروفَ أو شُكْرَه خالصًا لله، ونابعًا من فطرةٍ نقية تحب الخير، دون نظر لرأي إنسان وشكره.

ولاتكتمل شخصية الإنسانٍ ولاتنضج إلا بأكبر قدر من الخبرات العملية، والاحتكاك المباشر بشتى ألوان الحياة والعلاقات. وإذا حصر الإنسان معرفته وصلته بما ألف من طبائع المعاش والسلوك والعادات، ظلّ إدراكه وفهمه محدودًا بعوالم ضيّقة رتيبة، وجفّت قريحتُه ومات خياله.. قال التوحيدي: «إياك أن تعاف سماع هذه الأشياء المضروبة بالهزل، الجارية على السخف، فإنك لو أضربت عنها جملةً لنقص فهمك، وتبلّد طبعك، ولا يفتق العقل شيءٌ كتصفّح أمور الدنيا،ومعرفة خيرها وشرها، وعلانيتها وسرّها..»[١٨٧].

---

[١٨٥] المبرّد: الكامل، ج١، ص٣٦٢.

[١٨٦] ابن قتيبة الدينوري: عيون الأخبار، ج٣، ص١٧٣.

[١٨٧] التوحيدي: البصائر والذخائر. ج١، ص٥٥.

www.mtenback.com

طلب الناس للسر:

لايعدم السرّ من يسعى لكشفه ويتتبع آثاره ويشتمّ رائحته، إرضاءً لفضول وتزجيةً لوقت، أو جمعًا للهفوات واستخبارًا عن السقطات! وقد لاتعود أسباب كشف السر لقاصدٍ متعمّد أو فضوليٍّ متلصّص، حين تكون أسباب الانكتام مفقودةً أو قاصرة، وحين يوجد خللٌ في تقنيات ضبط السرّ وشروط حفظه! إنّ أيَّ خطأ غير محسوبٍ يمكن أن يسرّب السرّ فيفقد صُفة السرّية فيه، ويتحول لمشاعٍ يتداوله العام والخاص. ومن هنا فإنه ينبغي على طالب الاستتار أن يبالغ في الاحتياط وسدّ الثغرات المتوقعة وغير المتوقعة.

وليس كتمان السر بالأمر الهين حتى على صاحبه وهناك من الناس من لا يستطيع الصبر على مكابدته والتقلب في أجوائه حتى يغلي في صدره ويفور كما يفور القدر تحت لهيب النار ولكي نعرف ما يعانيه بعض أهل الأسرار نقرأ قول أحد الشعراء الذي يصور معاناته مع كتم السرّ وعجزه عن ذلك حين يقول(١٨٨):

وَلاَ أَكْتُمُ الأَسْرَارَ لَكِنْ أُذِيْعُهَا ... وَلاَ أَدَعُ الأَسْرَارَ تَغْلِي علَى قَلْبِي

وَإِنَّ قَلِيلَ العَقْلِ مَنْ بَاتَ لَيلَهُ ... تُقَلِّبُهُ الأَسْرَارُ جَنْبًا إِلى جَنْبِ

ومثله شاعر آخر يرى أنه لا يستطيع كتم الأسرار لأنها صعبة التحمل شديدة الوطء على النفس قاتلة لحاملها الذي يغمه حملها ويشغله ما يعاني منها(١٨٩).

مما لاشكَّ فيه أنَّ على المرء في الأصل أن يُحْسِن اختياره لموضع سرّه. وقد قال العرب في السرّ يُستؤمن في غير موضعه: قبّح الله سرًا عند المعيدي(١٩٠).

---

(١٨٨) الجاحظ: الحيوان، ج٥، ص١٨٥.

(١٨٩) ابن تنباك، مرزوق بن صنيتان، السر كما صوره الشعر.

(١٩٠) العبدري، محمد بن علي، أبو المحاسن: تمثال الأمثال. تحقيق: د. أسعد ذبيان. بيروت. دار المسيرة، ط١، (١٤٠٢هـ/١٩٨٢م)، ج٢، ص٤٨٩. انظر فيه قصة المثل.

www.mtenback.com

وقالوا في الرجل الذي يؤتمن على سرٍّ فينشره ويخذل مؤتمنه: طبَّل بسرّي[١٩١].

تجنبًا لمشكلات من هذا النوع، نصح المستورد قائلاً: لا تفش إلى أحدٍ سرًا، وإن كان مخلصًا، إلا على جهة المشاورة[١٩٢]. فيستخدم معاريض الكلام ويضرب الأمثلة ويضع التشبيهات.

أصل الأمن من انكشاف السرّ ألاّ يثق المرء بأحدٍ ممن يلوذ به ويصاحبه[١٩٣]! ليس على سبيل الاتهام ولكن من باب الاحتياط والمداراة، فما أكثر ما يُصاب الرجل من مأمنه ومن حيث لا يحتسب. كيف لا وإنّ أكثر ما يذيع أسرار الناس أهلوهم وحاشيتهم وصبيانهم، ومَن لهم عليهم اليد والسلطان[١٩٤].

والسرّ إذا تجاوز صدر صاحبه وأفلت إلى أذن واحدةٍ فليس حينئذٍ بسرّ، بل هو أولى بالإذاعة. وإنما بينه وبين أن يشيع ويستطير أن يُدفع إلى أذن ثانية.

وصدر صاحب الأذن الثانية أضيق، وهو إلى إفشائه أسرع، وبه أسخى، وفي الحديث عنه أعذر، والحجّة عنه أدحض.

ثمة أصناف كثيرة من الناس، تناولتها كتب الثقافة العربية بالشك في صون السرّ وحفظه؛ أو على الأقل، عدّتها منافذ محتملة لكشفه.

الصاحب: لعل باب الصحبة من أعرض أبواب الفضح وإفشاء السرّ، لأنّ عامّة الناس لا يتحرجون من كشف كثير من أحوالهم وشؤونهم الخاصة، أمام مَن يُعدّونهم أصدقاءهم المخلصين. ولايدركون مافي ذلك من الخطر والأذى إلاّ عندما ينشر صديقٌ

---

[١٩١] الميداني: مجمع الأمثال، ج١، ص٢٤٢.

[١٩٢] المبرّد: الكامل. ج ٣، ص٩٧٧. وانظر: ابن تنباك، السرّ كما صوره الشعر.

[١٩٣] وهو أيضًا رأي ابن الجوزي في صيد الخاطر. قال: لا تثق بأحدٍ ممّن تعاشره. انظر: ص١٥٧.

[١٩٤] الجاحظ: رسائل الجاحظ، انظر: ص١٠٩.

www.mtenback.com

بعض أسرارهم بحسن نيّة، أو غالبًا بسوء نية لحسدٍ أو عداوةٍ آلت بعد صداقة. قال شاعر[١٩٥]:

احْذَرْ عَدُوّكَ مَرَّةً وَاحْذَرْ صَدِيْقَكَ أَلْفَ مَرّة
فَلَرُبَّمَا انْقَلَبَ الصَّدِيـ ـقُ فَكَانَ أَعْلَمَ بِالْمَضَرَّه

ونُقل عن معاوية أنه قال: ما كنتَ كاتمَه من عدوّك فلا تظهر عليه صديقك[١٩٦].

هذا إذا كان الصديق مخلصًا، في أيام المودّة، ولا يُتوقع منه إلا الإحسان والوفاء. فكيف إذا كان صديقًا مشبوهًا، تقوم علاقته على مصلحةٍ ومنفعة، و لم يُمتحن صدقه و لم يُجرّب معدنه. ما أكثر النوع الثاني من الأصحاب في أيامنا، لكنّ عميان البصائر لا يكشفونهم إلا بعد فوات الأوان. قال الشاعر[١٩٧]:

احْذَرْ مَوَدّةَ مَاذِقٍ شَابَ الْمَرَارَةَ بِالْحَلاوَة
يُحْصِي الْعُيُوبَ عَلَيْكَ أَيَّـ ـامَ الصَّدَاقَةِ لِلْعَدَاوَة

وقد برّر بعض الشعراء العقلاء امتناعه عن كشف سره لمن يبادله المودة العميقة، بعذرٍ طريف! إنه لا يخشى صديقه أن ينقلب عليه، ولكنه يخشى من صديق صديقه! قال[١٩٨]:

إِذَا مَا كَتَمْتُ السِّرَّ عَمَّن أَوَدُّهُ تَوَهَّم أَنَّ الوُدَّ غَيْرُ حَقِيقِ

---

[١٩٥] البكري: فصل المقال في شرح كتاب الأمثال، ص٥٩؛ وذكر في الحاشية أنهما منسوبان للقاضي ابن معروف. وأيضًا: ابن الجوزي، صيد الخاطر، ص٢٩٩، دون نسبة لأحد.

[١٩٦] البيهقي: المحاسن والمساوئ. ج ٢، ص ٨٥. وأيضًا: المقدسي: الآداب الشرعية. ج٢، ص٢٨٢.

[١٩٧] البكري: فصل المقال في شرح كتاب الأمثال. ص ٥٩. وأيضًا: ابن قتيبة: عيون الأخبار، ج٣، ص١٠٧.

[١٩٨] قبّش: مجمع الحكم والأمثال، ص٢١٢. نسبهما إلى ابن الحاج الدلفيقي.

www.mtenback.com

وَلَمْ أُخْفِ عَنْهُ السِّرَّ عَنْ ضِنَـــةٍ بِـــهِ وَلَكِنَّنِي أَخْشَـــى صَدِيـــقَ صَدِيقِـــي

واقتضت الحكمة إقصاء الأسرار والخصوصيات جانبًا عن أيِّ صديق بغضّ النظر عن مدى الثقة والمصداقيّة التي نتوقعها ونقدّرها فيه. ولا يتغير الحكم مهما علت الثقة به، ولا يُظهر له سرٌّ أو (عورةٌ) إلا بشروط نوردها في بابها. قال الشاعر[١٩٩]:

وَإِنِّي لأَطْوِي السِّرَّ عَنْ كُلِّ صَـــاحِبٍ وَإِنْ كَانَ لِلأَسْرارِ[٢٠٠] عَدلُ الْجَوَانِحِ

أما الشاعر المعرّي فلم يكتف بالموافقة على ما نصح به هؤلاء الشعراء وغـــيرهم من كتم الأسرار عن الصديق ؛ بل طالب بما هو أشدّ من ذلك. فقد أوصى بـــــالتكتم أمام الأخ ؛ قريب الدم، شريك الأب والأم؛ فقال[٢٠١]:

أُكْتُم حَدِيْثك عَنْ أَخِيْكَ وَلاَ تَكُـــــنْ أَسْرَارَ قَلْبِـــكَ مِثْـــلُ أَسْـــرَارِ اليـــدِ

فكأنه أراد أن كشف المستور أمام الأخ سيقود إلى الافتضاح والانكشاف الذي يماثل انكشاف خطوط الكفّ للناس.

لاشك أن الكتم أمام الأخ والصديق يعكس ظلالاً من الوحشة معه ويوحـــــي بمناخٍ من الشك وعدم الثقة ؛ لكن الإنسان البارع قادرٌ على نسج علاقاتٍ اجتماعيـــةٍ ناجحة دون أن يحتاج لتغذيتها بنشر أسراره أو أسرار غيره.

المرأة والسر:

يغلب الطابع الانفعالي والعاطفي على المرأة، فيعسّر في كثير من الأحيان مهمـــة حفظها للسرّ، وقد تكشف سر نفسها أو زوجها وحال بيتها، بحسن نيّة. كما أن ســـرّ

---

[١٩٩] الوشّاء: الموشّى. ص ٦١.

[٢٠٠] العَدْل: العادل. الجوانح: الأضلاع، والواحدة: جانحة. يريد أنه يكتّم سرّه عن صاحبـــه، وإن كـــان صاحبه ممّن يكتم الأسرار لعدالته.

[٢٠١] المعرّي: ديوان لزوم ما لا يلزم. ج١، ص٣١٨.

www.mtenback.com

زوجها يغدو سلاحًا فتّاكًا إذا أحوجتها الظروف لاستخدامه، فيخضع لشروطها ولا يجرؤ على طلاقها. وقد قيل: لا تُطلِعوا النساء على سرّكم يصلح لكم أمركم[٢٠٢]. كما قال الشاعر[٢٠٣]:

وَلَسْتُ مُحَدِّثًا سِرِّي خَلِيلاً ... وَلا عِرْسِي، إِذَا خَطَرَتْ هُمُومُ

وقالت العرب في أمثالها: «لا تُفش سِرَّك إلى أَمَة، ولا تَبُل على أَكَمَة» [٢٠٤]. فاجتمع في الأمة العبودية وطبع المرأة. كما ورد عن عليّ كرم الله وجهه: «لا تطلع عبدك وزوجك على سرك فيسترقانك»[٢٠٥]. ولا يغيب أن كشف المرأة لما يقتضي كتمه قد يقع مباهاةً أو غيرةً أو شماتة، ومثل المرأة:

النّمام والثرثار فهما أخطر منافذ انكشاف السرّ ومصارعه، لأنّ لذة النمام في استراق الأخبار والأسرار، وإذاعتها، والفتن بين الناس. والنمام تنقطع لذّته من الدنيا إذا أمسى صِفرًا من أخبار ينقلها وعورات يكشفها. وهو يحقّق ذاته ويجد نفسه في أداء هذه المهمة التي رهن لها نفسه. قال أيوب السختياني: النّمام ذو الوجهين أحسن الاستماع، وخالف في الإبلاغ[٢٠٦]. قال الشاعر[٢٠٧]:

وَلاَ تُفْشِيَنْ سِرًّا إِلى ذِي نَمِيْمَةٍ ... فَذَاكَ إِذًا ذَنْبٌ بِرَأسِكَ يُعْصَبُ

---

[٢٠٢] المقدسي: الآداب الشرعية والمنح المرعية، ج٢، ص٢٨٢.

[٢٠٣] الجاحظ: الحيوان. ج ٥، ص ١٨٨. نسبه إلى: (رجل من بني سعد).

[٢٠٤] الميداني: مجمع الأمثال. ج٢، ص٢١٥. قال فيه: هذا من قول أكثم بن صيفي، وإنما قرن بينهما لأنهما ليسا بمحلّ لما يودعان.

[٢٠٥] تيمور: علي بن أبي طالب، شعره وحكمه، ص٥٩.

[٢٠٦] الجاحظ: البيان والتبيين. ج ٢، ص١٤٩.

[٢٠٧] قبّش: مجمع الحكم والأمثال. نسبه إلى دعامة بن زيد الطائي.

www.mtenback.com

يروى أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه حين أحبَّ أن يُشيع إسلامه قال: من أنمُّ أهل مكة ؟ قيل له: جميل بن النُّحَيت. فأتاه فأخبره بإسلامه وسأله أن يكتمه عليه، فلم يُمْسِ وبمكة أحدٌ لم يعلم بإسلام عمر(٢٠٨).

وشبيهُ النَّمامِ الثرثارُ الذي دأبهُ جمعُ الطرائف والغرائب، وبثُّها، والتداول مع الناس فيها. يجد في ذلك متعته ومادة لسانه الذي لا يتوقف عن الكلام، ويغيب في أثناء ذلك ضبطهُ واتزانهُ وعقله. وقد وصفه المعري بقوله(٢٠٩):

لاَ تُودِعِ السِّرَّ مِزْمَارًا فَيُعْلِنَهُ ... بِجَهْلِهِ، بَعْدَ طُولِ الصَّمْتِ وَالْخَرَسِ

ومثلُ النّمام والثرثار في فعلهما: الحاسد، وهو لا يحتمل حرَّ الحسد ونارَه في قلبه، فلا يجد عزاءً سوى النقل والإفشاء بين الناس، وقد صدق في الحاسد وصف أبي تمام له(٢١٠):

وَإِذَا أَرَادَ اللهُ نَشْرَ فَضِيلَةٍ ... طُوِيَتْ، أَتاحَ لَهَا لِسانَ حَسُودِ

لَولاَ اشْتِعَالُ النَّارِ فِيمَا جَاوَرَتْ ... مَا كَانَ يُعْرَفُ طِيْبُ عَرْفِ الْعُودِ

وليس الحسد شعوراً مكشوفًا مضبوطًا دائمًا، فما أكثر ما تتحرك فينا دوافع الحسد الخفية دون أن نشعر بها. والبصير مَن أحسّ بها، فتذكّر، فلجم نفسه.

ومِن فعل الحسد فضحُ الإنسان المعروف بالصلاح، بسوءٍ كان يفعله قبلاً، وهذا معلومٌ مشاهَد. لكنّ الإحسان إلى الناس قد يدفع عنه ويستر عليه. قال حكيم: الإنسان مستورٌ ما أتبع قبيحه حسنًا(٢١١).

---

(٢٠٨) الجاحظ: رسائل الجاحظ. ص١١١.

(٢٠٩) المعري: ديوان لزوم ما لا يلزم. ج ١، ص ٥٦٩.

(٢١٠) الطائي، حبيب بن أوس، أبوتمام: ديوان أبي تمّام بشرح الخطيب التبريزي. تحقيق: محمد عبده عزّام القاهرة، دار المعارف، (١٩٥١م) ج١، ص٤٠٢.

(٢١١) التوحيدي: البصائر والذخائر. ج٩، ص٨١.

www.mtenback.com

طالب السر: لأنه لا يطلب السرَّ امرؤٌ إلاّ لغايةٍ مريبةٍ أهونها الفضول والتلصّص على أحوال الناس، ثم بعد ذلك يلتذّ بنشره وتعجيب الناس منه. لذا قال العرب في أمثالهم: «لا تنكح خاطب سرٍّك»[٢١٢]. وقال صالح بن عبدالقدوس[٢١٣]:

لا تُذِعْ سِرًّا إلى طَالِبِهِ ... مِنْكَ إنَّ الطَّالِبَ السِّرَّ مُذِيعْ

وَأَمِتْ سِرَّكَ إنَّ السِّرَّ إنْ ... جَاوَزَ الاثْنَيْنِ يَنْمِي وَيَشِيعْ

المُشَدّد عليه في الكتمان: هذا بابٌ طريفٌ يكشف جانبًا ممّا رُكِّبتُ عليه النفس من غريب الطبائع وعجيب الأخلاق. فالمُجَرَّب أنّ من يُفضي إليه بالشيء، يبلغ من إذاعته ونشره مالايبلغُه الرسول المستحفظ المعني بتبليغ الرسالة، المحمودُ المجازى على أدائها. ومن أكثر الأعوان على إظهار السر الاستعهاد له والتحذيرُ من نشره، فإنّ النهي أغرى، لأنه تكليف مشقة، والصبر على التكليف شديد. ولعلّ رجلاً لو قيل له: لاتمسح يدك بهذا الجدار، وهو لم يمسحها به قطّ، غَرِيَ بأنْ يفعل[٢١٤]!

ومما يروى أنّ أبا إسحاق النظّام كان أضيق الناس صدرًا بحمل سرّ، وكان شرَّ ما يكون إذا يؤكّدَ عليه صاحب السر، وكان إذا لم يؤكد عليه ربما نسيَ القصة، فيسلم صاحب السر[٢١٥]!

ومن طبع النمام أن ينم لك وينم عليك، وقد قالت العرب: مَن نمَّ لك نمَّ عليك[٢١٦]. لأنّ النمّام لن يرى فيك ميزةً تمنعه من جعلك موضوعًا يلوكُه بلسانه فيما بعد. وقد قال الشاعر[٢١٧]:

---

[٢١٢] الميداني: مجمع الأمثال، ج٢، ص٢٥٩.

[٢١٣] الخطيب، عبد الله: صالح بن عبد القدوس البصري، بغداد، دار منشورات، (١٩٦٧م)، ص١١٩.

[٢١٤] الجاحظ: رسائل الجاحظ. انظر: ص ١١١.

[٢١٥] الجاحظ: الحيوان. ج٥، ص١٨٧.

[٢١٦] لم أجده في المصادر التي بين يديّ، وهو قول شائع.

[٢١٧] قبّش: مجمع الحكم والأمثال. ص ٢١٢. نسبها إلى ابن خاتمة الأندلسي.

www.mtenback.com

عَلَيْكَ الكَتْمَ وَاحْـــذَرْ قَــوْلَ سِــرٍّ ... لِمَنْ قَدْ ظَلَّ سِــرَّ سِــواكَ يَحْكِــي
فَمَــنْ أَهْــدَاكَ سِــرَّ الغَــيْرِ يَوْمًــا ... أَفَــادَ الْغَــيْرَ سِــرَّكَ دُوْنَ شَــكٍّ

إنّ النمام خائن، والخائن لاعهد له، فيكشف سرٌّ مَن استأمنه عليه، ولن يردعه مانعٌ أخلاقيّ من فضح أسرار الآخرين. ولمثل هذا قيل: لاتودِعنّ سِرَّك مَن لا أمانة له[٢١٨]. وكفى بالنميمة سوءًا ما ورد في شأنها من الوعيد الشديد في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ.

من يكشف سِرُّه:

تتدخل أسبابٌ مختلفة فتعجّل هتك السرّ أو تسهم في ترميمه وصون أسواره، وتتراوح قوانينُ وظروفٌ شخصيةٌ واجتماعية، في سترِه أو فضحه. وأولى ذوي الأسرار بالرثاء مَن كان حاله كما وصف المعريّ[٢١٩]:

وَأَسْرارُ بَعْضِ النّاسِ بــانَتْ لِنــاظِرٍ ... كَأَسْــرارِ كَــفٍّ غَــيْرُهُنَّ خَوافِــي

فلا يعرف كيف يحتاط لسرّه، ولا كيف يطرد طلابه ويخدعهم عنه، بل يكون كلامُه ومظهره مغريًا بالسعي خلفه والاستخبار عنه، ولايزال يحوم حول الحمى حتى يقع فيه. ويكون كمن قيل فيه: صاحب سرٍّ فطنته في غربه[٢٢٠].

على أن حفظ السّر أمر يعسر تحقيقه على العاقل الأريب، فضلاً عن الغافل الضعيف. فلو أنّ أوزن الناس حلمًا ملكَ لسانه وحصّن سره وقللّ لفظه، ماقدر – إلا بعد تصنّع شديد – على أن يملك لحظَ عينيه، وسحنة وجهه، وتغيّر لونه، وتبسُّمَه أو

---

[٢١٨] تيمور: علي بن أبي طالب، شعره وحكمه. ص٥٨.

[٢١٩] المعري: ديوان لزوم مالايلزم. ج٢ ص٦٠. أي خفاياهم صارت ظاهرة كخطوط اليد.

[٢٢٠] الميداني: مجمع الأمثال. ج١ ص٤٠٣.

www.mtenback.com

قطوبه، عندما يجري بلبّه من ذكر ذلك السّر، فيبدو في وجهه ومخايله إذا عرض بذكره أو سنح له نظيرٌ أو حضر مَن فيه سبب[٢٢١].

ويبين أثر ذلك في طرفه ونظرات عينيه، كما قال المعري[٢٢٢]:

قَدْ حَدَّثَتْ سِرَّكَ طُلاَّبُهُ عَيْنٌ بِمَا فِي الصَّدْرِ نَمَّامَهْ

وتحسّر المعري، وعبّر عن يأسه من إمكان لجم السّر عن الانكشاف، ففي رأيه أنه لايوجد إنسانٌ مات ودُفنت معه أسراره[٢٢٣]:

فَأَيْنَ الَّذِي فِي التُرْبِ يُدْفَنُ شَخْصُهُ وَأَسْرارُهُ مَدْفُونَةٌ فِي التَّرائِبِ

لن نكون متشائمين مع المعري إلى هذه الدرجة، وسنحدد صفات أو طوائفَ من الناس، ممّن تُكشف أسرارهم أو أنهم يُستهدَفون لكشفها، عسى ألاّ نكون من بينهم، ولا تنطبق علينا صفاتهم.

وأول من يُكشف سره مَن جعل له بيتاً غير صدره، فمن ارتاد لسره موضعًا فقد أذاعه[٢٢٤]. وإذا جاوز السّر اثنين ضاع وشاع. قال الصَّلَتَان العبدي [٢٢٥]:

وَسِرُّكَ مَا كَانَ عِنْدَ امْرِئٍ وَسِرُّ الثَّلاثَةِ غَيْرُ الخَفِيّ

وممّن يُكشف سرُّهم:

العاشق: هذا موضوعٌ لطيف يُكشف فيه صاحب السر سريعًا، لأنّ للحبّ أمارات وعلامات لابدّ أن تظهر. وقد تأوّه كثير من المحبين متذمرين لما يصيبهم من

---

[٢٢١] الجاحظ: رسائل الجاحظ. ص١٠٧.

[٢٢٢] المعري: ديوان لزوم ما لا يلزم، ج٢، ص٣٢٦.

[٢٢٣] المعري: ديوان لزوم مالايلزم. ج١، ص١٢٤.

[٢٢٤] ابن قتيبة الدينوري: عيون الأخبار. ج١، ص٣٨.

[٢٢٥] ابن قتيبة الدينوري: عيون الأخبار. ج١، ص٣٩.

www.mtenback.com

البكاء والتأثر وسيلان الدمع الذي لاطاقة لهم على كبحه وردّه، لافرق في ذلك إذا غابت الحبيبة أو حضرت. ولذلك سلّموا بافتضاح الهوى بسبب حال المحب الظاهر، ودمعه النافر! قال الشاعر[٢٢٦]:

وَلَوْ أَرادَ اللهُ سَتْرَ الهَوى مَا سَلَّطَ الدَّمْعَ عَلَى هَتْكِهِ

مع أننا نتحفَّظ على هذا البيت من حيث معناه، فليس صحيحًا ما ورد من جواب لو في شطره الثاني، فالله سبحانه وتعالى هو الستّار أمر بالستر ودعا إليه. وهذا البيت من عثرات الشعراء.

وبكاء المحبّ لا يخفف من لوعة القلب وعذابه. إذا صدقنا قول أبي تمام[٢٢٧]:

أَجْدِرْ بِجَمْرَةِ لَوْعَةٍ إِطْفَاؤُهَا بِالدَّمعِ، أَنْ تَزْدَادَ طُولَ وَقُودِ

وهذه الحال استثارت عطف أصحاب القلوب الرقيقة أو أسف المجرّبين الملتاعين، فحاولوا التسرية عن المحب وتسليته بحديث ومباسطة. ذكر ابن الجوزي عن بعضهم قال: دعاني فتىً من أهل بلدي إلى جارية تغني، فلما دخلنا عليها إذا هي أحسن الناس وجهًا، وإذا بها انخراطُ وجه وسهوٌ وسكوت، فجعلنا نبسطها بالمزاح والكلام، ويمنعها من ذلك ماتكتم. فقلت في نفسي: والله إنّ بها لهيامًا وطائفًا من الحب، فأقبلتُ عليها فقلتُ: بالله لتصدقني بالذي بك، فقالت: بَرح الذكر ودوام الفكر وحلول النهار والتشوق إلى مَن سار. ثم أنشدت[٢٢٨]:

سَيُورِدُنِي التَّذْكارُ خَوْضَ المَهالِكِ وَلَسْتُ لِتَذْكَارِ الحَبِيبِ بِتَارِكِ

أَبَى اللهُ إِلاّ أَنْ أَمُوتَ صَبَابَةً وَلَسْتُ لِمَا يَقْضِي الإِلَهُ بِمَالِكِ

---

[٢٢٦] التوحيدي: البصائر والذخائر. ج٦، ص٢٤٢.

[٢٢٧] أبو تمام الطائي: ديوان أبي تمام بشرح الخطيب التبريزي. ج١، ص٣٩٢.

[٢٢٨] ابن الجوزي: أسرار العشاق. ص٣٦-٣٧.

www.mtenback.com

من المؤكّد أن أحوال الحبّ وأخباره غرضٌ لاستطلاع المستخبرين واستقصاء الفضوليين، لما فيها من غرابةٍ وطرافةٍ وملامسةٍ لأعماق الدوافع الإنسانية، بغض النظر عن التعاطف والتألم والتفّهم!

يروى أنّ عزّة دخلت على عاتكة بنت يزيد، فقالت عاتكة: أخبريني عن قول كثيّر:

قَضى كُلُّ ذِي دَيْنٍ فَوَفّى غَرِيمَهُ وَعَزَّةَ مُمْطُولٌ مُعَنّى غَرِيمُهَا

ماكان دينُه؟ وماكنتِ وعدتِه؟ قالت: كنتُ وعدتُه قبلةً، ثم تأثمتُ منها. قالت عاتكة: وددْتُ أ نكِ فعلتِ، وأنا كنتِ تحملْتُ إثمها عنكِ. ثم ندمت عاتكة، واستغفرت الله[٢٢٩].

فضل ذي الفضل: لا يلبث شذا طيب الفاضلين أن يفوح دالاً عليهم وكاشفًا حُسن فعالهم، فإن ستروا جودهم حينًا، لم يلبثوا أن يُستدلَّ عليهم بلسان شاكريهم وكريم أخلاقهم وجميل سجاياهم التي يتناقلها الناس عنهم[٢٣٠]. وورد في الحديث أن النبي ﷺ قيل له: أرأيت الرجل يعمل العمل من الخير ويحمده الناس عليه ؟ قال: تلك عاجل بشرى المؤمن[٢٣١].

وقال صاحب كليلة: لايخفى فضل ذي فضل وإن أخفاه بجَهده، كالمسك الذي يخبأ ويُستر ثم لايمنع ذلك ريحه من التذكّي[٢٣٢].

---

[٢٢٩] ابن حِجّة الحمَويّ: ثمرات الأوراق. انظر: ص٧٥.

[٢٣٠] اقرأ قصة «جابر عثرات الكرام» في كتب الأدب، وهي مشهورة.

[٢٣١] المنذري: مختصر صحيح مسلم. الحديث رقم (٥٠٠) ص١٥٤.

[٢٣٢] التوحيدي: البصائر والذخائر. ج ٥، ص ٣٤.

www.mtenback.com

المؤهل لأن يُستودع السرّ:

يطمح كلُّ الذين يجمعون بين القوة والحكمة إلى ضرب حجابٍ صارم دون أسرارهم وخصوصياتهم. بل لعلَّ كثيرًا منهم يحتفظ لنفسه بأكثر من (شخصية)، تبرز كل واحدةٍ منها في الظرف الذي يحتاجها وتناسبه! ولا تظهر الشخصية الحقيقية لأحدهم إلا بينه وبين نفسه، في جوفٍ مظلمٍ لا يراه أحد!

وهو ما يسمّى التجلُّد والظهور بالمظهر المناسب، وهذا يختلف عن تلوُّن المنافق.

هذا حال أصحاب القوة البشرية؛ فما زال امتلاك القوة بأنواعها حلم الإنسان.

لا يستغني عامّة الناس عن مطالعة صديق مخلص، واستشارة ناصح صادق، في مشكلاتٍ وحوادث لا يقوم فيها التلميح مقام التصريح، ولا يقوم ضربُ الأمثلة مقام شرح الوقائع.. فيضطر المرء اضطرارًا لكشف بعض أوراقه المستورة طلبًا لمشورة أو رجاءً لنصرةٍ أو نشدانًا لراحةٍ وأنس.

وهو في هذا واجب عليه، إن طلب السلامة، أن يُحسن اختيار من يستودعه سرّه، فلا يبوح به إلا في أهله الحقيقين بحفظه. قال الشاعر[٢٣٣]:

فَبُحْ بِالسَّرائِرِ فِي أَهْلِهَا وَإِيّاكَ فِي غَيْرِهِمْ أَنْ تَبُوحا

وقالت العرب في استيداع السرّ: اجعله في وعاءٍ غير سَرِب[٢٣٤]. وقالوا في الرجل يثق بصاحبه فيخبره بسرّه: أخبرته بعُجري وبُجَري[٢٣٥]. ورأوا أن الكتمان حقٌّ للمتكلم على السامع، فقالوا: للقائل على السامع جمعُ البال والكتمان وبسط العذر[٢٣٦]. لكنّ

---

[٢٣٣] الحريري، القاسم بن علي، أبو محمد: درّة الغوّاص في أوهام الخواصّ. بغداد، مكتبة المثنّى، بلا تاريخ.

[٢٣٤] الميداني: مجمع الأمثال. ج ١ ص١٦٧. يقول: لا تُبْدِ سِرّكَ إبداءَ السقاءِ ماءَه.

[٢٣٥] البكري: فصل المقال في شرح كتاب الأمثال. ص ٦٥. أي أظهرتُه من ثقتي به على معايبي.

[٢٣٦] ابن قتيبة: عيون الأخبار، ج ١، ص ٤١.

www.mtenback.com

هذا لا يعني تحقُّق السامعين بما عليهم من واجبات، ولا يعني أمانة كل الأصحاب والأصدقاء!

وهذا ما شجّع بعض المتأدبين والشعراء لأن يمتدحوا أنفسهم، وينسبوا إليها الأمانة العالية المتميزة في حفظ أسرار الآخرين، حتى بدت أشعار بعضهم دعاية إعلامية ودعوة لاستيداع أسرار الناس لديهم ! قال الشاعر(٢٣٧):

وَمُسْتَوْدَعي سِرًّا كَتَمْتُ مَكَانَهُ ... عَنِ الْحِسِّ خَوْفًا أَنْ يتمَّ بِهِ الحِسُّ

وَخِفْتُ عَلَيْهِ مِنْ هَوى النَّفْسِ شَهْوَةً ... فَأَوْدَعْتُهُ مِنْ حَيْثُ لا يَبْلُغ الحِسُّ

وأنكر العباس بن الأحنف أن يشكّك في حفظه لحديث صاحبه، وأعلن عن أسفه لذلك الظنّ السيء، وقرّر أنه حريٌّ بالاحتقار والشك، لو أنّه حقًا أفشى سرّ صاحبه(٢٣٨):

أَمِنّي يُخَافُ انْتِشارُ الْحَدِيثِ ... وَحَظِّيَ فِي صَونِهِ أَكْثَرُ

وَلَوْ لَمْ يَكُن فِيهِ بُقْيَا عَلَيْ ... كَ نَظَرْتُ لِنَفْسِي كَمَا تَنْظُرُ

هذا الشكّ أمرٌ طبيعي يختلج في نفس أي إنسان مدرك للخطر الذي يترتب على استكتامه سرّه لدى شخص، مهما كان هذا الشخص أمينًا. عرف الحكماء ذلك الخطر، لكنهم فهموا حاجة الإنسان أحيانًا لكشف سرّه، فراحوا يفصّلون في شعر ونثر صفاتَ مَن يستحق استيداع السرّ، وشروط ذلك وظروفه. فالجاحظ مثلاً يضع قاعدةً ذكية في شرط الكشف، لكنها لا تقبل التحقق دائمًا. قال: لا تضع سرك إلا عند مَن يضرُّه نشره كما يضرك، وينفعه ستره بحسب ما ينفعك(٢٣٩). أما زياد بن أبيه فيصنّف

(٢٣٧) الأبشيهي: المستطرف. ج١، ص٢٢٥.

(٢٣٨) الوشّاء: الموشّى. ص٦٣. وأيضًا: الجاحظ: المحاسن والأضداد. ص٢١.

(٢٣٩) الجاحظ: رسائل الجاحظ. ص ٨٩.

www.mtenback.com

الناس في استيداعهم الأسرار تصنيفًا دقيقًا واضحًا قال: ليس موضع السرّ إلا أحدَ رجلين: رجل آخرة يرجو ثواب الله، ورجل دنيا له شرفٌ في نفسه، وعقل يصون به حسبه[٢٤٠].

فلا يصون السرَّ إلا مخلصٌ لدينه مراقب لربّه، أو عاقلٌ يحتاط لمروءته وشرفه. وشأن هذا الإنسان أن يحوي في صدره أسرار الناس وهمومهم، فيضم إلى الأخبار تجربةً ودرايةً بأحوال المجتمع وأخلاقه. قال مسكين الدارمي[٢٤١]:

أُؤاخِي رِجَالاً لَسْتُ أُطْلِعُ بَعْضَهُمْ ... عَلَى سِرِّ بَعْضٍ غَيْرَ أَنِّي جِمَاعُهَا

يَظَلُّونَ شَتَّى فِي الْبِلادِ وَسِرُّهُم ... إِلَى صَخْرَةٍ أَعيَا الرِّجالَ انْصداعُهَا

وربما تسرّبتْ نفس المرء وتحررت من قيودها، وتكلّفها، الذي يصون عنها الغمز واللمز في المنتديات، وذلك إذا وثق بمروءة من يجالسهم، وارتاح لمباسطاتهم الخالية من التعقيد والمراقبة؛ وعندها تنكشف أستار الاصطناع والخشية. قال ابن كناسة[٢٤٢]:

فِيَّ انْقِبَاضٌ وَحِشْمَةٌ فَإِذا ... لاقَيْتُ أَهْلَ الوَفَاءِ وَالكَرَمِ

خلَّيْتُ نَفْسِي عَلَى سَجِيَّتِها ... وَقُلْتُ مَا قُلْتُ غَيْرَ مُحْتَشِمِ

إذا حظي المرء بصاحب أو جليس من صنف هؤلاء الناس، فلا جرَم أنه واقع على كنزٍ ثمين، إذ يكسب مؤنسًا ظاهرُه كباطنه في النبل والصدق، ويضمن صيانة عرضه في غيابه، ويأمن من طعنة تأتيه من خلف. ذكروا أن معاوية قال للأحنف في شيء بلغه عنه، فأنكر ذلك الأحنف، فقال معاوية: بلّغني عنك الثقة. فقال الأحنف: يا أمير المؤمنين، إن الثقة لا يبلّغ[٢٤٣].

---

(٢٤٠) ابن قتيبة: عيون الأخبار. ج١ ص ٢٩. وأيضًا: البيهقي: المحاسن والمساوئ. ج٢ ص ٨٩.

(٢٤١) الجاحظ: رسائل الجاحظ، ص١١٠.

(٢٤٢) الجاحظ: البيان والتبيين. ج ٣ ص ٢٤٨.

(٢٤٣) المبرّد: الكامل. ج ٢ ص ٧٠٥.

www.mtenback.com

ولا يجد الشخص الجريء غضاضةً في أن ينشر أحيانًا سرًا قد يودي به إلى التهلكة، لو بان وظهر، بحضور هؤلاء الثقات، وإن كنا نرى أنها مخاطرة على كل حال، لا داعي لتقحمها ما لم تُبْنَ عليها منفعةٌ تستحق ركوب الخطر. ذكر الجاحظ أن بعض رجال العراق دخل على عبد الملك بن مروان، فأوقع بالحجّاج عنده وسبّه، فلما خرج لامه بعض أصحابه وقال: ما يؤمنك أن يخبر أمير المؤمنين الحجاج بما قلت فيه، ومرجعك إلى العراق، فيضغنه عليك؟ قال: كلا. إني ما رَطَلْتُ[٢٤٤] بيدي قط أحدًا أرزنَ[٢٤٥] منه[٢٤٦].

مع ما في هذا التصرف من مخاطرة وتسرّع، فإن الدافع النفسي يطغى أحيانًا فيتجاوز بصاحبه ضوابط العقل والمنطق الصارفة، كما حصل مع هذا العراقيّ، فيضع مَقَاتِلَه بين يدي مستودعه بأمان.

ومثل هذا يحدثُ عندما يستنجد صاحبُ حاجةٍ عفيف النفس طيب السمعة، بكريم مفضال، بحيث لا يخشى على سمعته ولا يخاف افتضاح أمره عند من استودعه حاجته. هذا ما جرى لأبي نواس في حاله مع بعض الكرام. قال[٢٤٧]:

إِلَيْكَ غَدَتْ بِي حَاجَةٌ لَمْ أُبُحْ بِهَا ... أَخَافُ عَلَيْهَا شَامِتًا فَأُدَارِي

فَأَرْخِ عَلَيْهَا سِتْرَ مَعْرُوفِكَ الَّذِي ... سَتَرْتَ بِهِ قِدْمًا عَلَيَّ عَوَارِي

ومن الشروط المطلوبة في مستودع السرّ أن يكون ضابطًا للسانه حافظًا لأسراره. فإن كان مضيّعًا لسرّ نفسه، فهو لسرّ غيره أضيع. قال الشاعر[٢٤٨]:

---

[٢٤٤] رطل الشيء: رازه بيده ليعرف وزنه.

[٢٤٥] أرزن: أثقل.

[٢٤٦] الجاحظ: رسائل الجاحظ. ص١٠٨.

[٢٤٧] أبو نواس: ديوان أبي نواس. ص٢٨٢. وأوردهما المبرد في الكامل. ج ١ ص٣٥٤.

[٢٤٨] قبّش: مجمع الحكم و الأمثال، ص٢١١. نسبة إلى يحيى بن زياد.

www.mtenback.com

إِذَا الْمَرْءُ لَمْ يَحْفَظْ سَرِيْرَةَ نَفْسِهِ فَلاَ تُفْشِيَنْ يَوْمًا إِلَيْهِ حَدِيثَا

ومن شروطه أن يكون كاتمًا لسرّ غيرك عنك. لأنك لا تمتاز عن أحد لديه بشيء يحصنك ويردّ عنك لسانه. قال الشاعر(٢٤٩):

لاَ تُفْشِ سِرًّا مَا اسْتَطَعْتَ إلى امْرِئٍ يُفْشِي إِلَيْكَ سَرَائِرًا يسْتَوْدَعُ

فَكَمَا تَرَاهُ بِسِرِّ غَيْرِكَ صَانِعًا فَكَذَا بِسِرِّكَ لاَ مَحَالَةَ يَصْنَعُ

وربما كان لمستودَع السرّ مصلحةٌ في الكتمان، كالتودد إلى صاحبه وكسب رضاه وثقته، ومَن أولى بهذا من المحبّ العاشق، فهو يسعى واثبًا لإرضاء محبوبه، وإظهار البراهين تلو البراهين على إخلاصه وصدقه. ولا يلوح الخطر في هذه الحال إلا إذا ضاع الحبّ ويئس كل واحدٍ من وصال صاحبه، وانقلب وصال الحب بغضًا وشرًا. قال الشاعر(٢٥٠):

خَتَمْتُ الْفُؤَادَ عَلَى سِرِّهَا كَذَاكَ الصَّحِيْفَةُ بِالْخَاتِمِ

هَوَى بِي إِلَى حُبِّهَا نَظْرَةٌ هَوِيَّ الْفَرَاشَةِ لِلجَاحِمِ

ويبقى كتم سرّ الآخر، على كل حال، مرتبطًا بمروءة الإنسان والمكارم التي يتحلى بها. قال الشاعر(٢٥١):

لا يكتم السرَّ إلاَ مَنْ لَهُ شَرَفٌ وَالسرُّ عِنْدَ كِرَامِ النَّاسِ مَكْتُوْمْ

---

(٢٤٩) قبّش: مجمع الحكم والأمثال. ص ٢١١. نسبهما لعلي بن أبي طالب، ولم أجدهما عند تيمور.

(٢٥٠) الجاحظ: الحيوان ج٥. ص ١١٨، الجاحم: الجمر شديد الاشتعال. وفي الصفحة نفسها أورد بيتين في المعنى نفسه قالهما البعيث:

فَإِنْ تَكُ لَيْلَى حَمَّلَتْنِي لُبَانَةً فَلاَ وَأَبِي لَيْلَى إِذنْ لا أَخُونُهَا

حَفِظْتُ لَهَا السِّرّ الَّذِي كانَ بَيْنَنَا وَلاَ يَحْفَظُ الأَسْرارَ إلاّ أَمِيْنُهَا

(٢٥١) قبّش: مجمع الحكم والأمثال. ص ٢١٣. نسبه إلى الحسين بن عبيدالله.

www.mtenback.com

و لايصحُّ استيداعُ شخصٍ سرًا ما لم يكن ثقةً أمينًا جديرًا بحمل هذه المسؤولية وأدائها[٢٥٢]:

لا تُفْشِ سِـــرَّكَ إلاَّ عِنْـــدَ ذِي ثِقَـــةٍ أَوْلاَ، فَأَفْضَلُ مَا اسْتَودَعْتَ أَسْـــرارا
صَدْرًا رَحِيبًا وَقَلبًـــا وَاسِـــعًا صَمِتًـــا لَمْ تَخْشَ مِنْه لِمَا اسْتَوْدَعْتَ إِظْهَـــارا

ولا يحمل السرّ نفس دنيئةٌ ذليلة بل الحقيق به نفسُ حرٍّ أبيٍّ كريم السجايا نبيل الأصول. قال الشاعر[٢٥٣]:

أَمِـــتِ السِّـــرَّ بِكِتْمَـــانٍ، وَلاَ يَبْدُوَنْ مِنْـــكَ إِذَا اسْـــتُودِعْت سِـــرّ
فَـــإِذَا ضِقْـــتَ بِـــهِ ذَرْعًـــا فَـــلاَ تَجْعَلَـــنْ سِـــرَّكَ إلاّ عِنْـــدَ حُـــرّ

لكنّ الأحرار ليسوا معصومين، فمن الممكن أن يستولي الضعف البشري علـــى بعضهم لسببٍ ما، فيقصروا في حفظ الأمانة، وتفشو الأسرار وتضيع. ومع ذلك يجـــد بعض الأشخاص مجالاً لتجديد الثقة بهم أنفسهم. أنشد أحمد بن يحيى ابن الخطيم[٢٥٤]:

وَإِنْ ضَيَّعَ الأَحْـــرارُ سِـــرًّا، فَـــإِنَّنِي كَتُـــومٌ لأَسْـــرارِ الْعَشِـــيرِ، أَمِـــينُ

وممّن يُفترض فيهم حسنُ الاستيداع، كما ذكرنا، الإنسان الكريم، في حســـن أخلاقه وشريف طباعه وسموّ معاملته. وقد نعت كثيّر نفسه، في بعض أشعاره بـــالكريم الذي يموت سر الناس في صدره[٢٥٥]:

كَرِيمٌ يُمِيْتُ السِّـــرَّ، حَتّـــى كَأَنَّـــهُ إِذَا استبحثوه عَنْ حَدِيْثِكَ، جَاهِلُـــه

---

[٢٥٢] قبّش: مجمع الحكم والأمثال: ص ٢١١. نسبهما إلى كعب بن زهير، و لم أجدهما في ديوانه.

[٢٥٣] الوشّاء: الموشّى. ص ٦١.

[٢٥٤] الوشّاء: الموشّى. ص ٦٤.

[٢٥٥] الخزاعي، كثير بن عبدالرحمن، أبو صخر: ديوان كثيّر عزة. شرح: قدري مايو، بيروت، دار الجيل، ط١، (١٤١٦هـ/١٩٩٥م)، ص٢٧٠.

www.mtenback.com

وفي أبيات أخرى، أتى بوصفٍ جامعٍ لمن يُستودع السرّ بجدارة، ثم نسب هذا الوصف لنفسه ! قال[٢٥٦]:

أَتَى دُوْنَ ما تَخْشَوْنَ مِنْ بَثِّ سِرِّكُمْ أَخُو ثِقَةٍ، سَهْلُ الْخَلاَئِقِ، أَرْوَعُ
ضَنِينٌ بِبَثِّ السِّرِّ، سَمْحٌ بِغَيْرِهِ أَخُو ثِقَةٍ، عَفُّ الوِصَالِ، سَمَيْدَعُ

نختم هذا المبحث بمقارنة لطيفة أجراها الماوردي، بين استيداع الأسرار واستيداع الأموال، وبيان أيهما أشقّ وأصعب. فعنده أنّ على المرء أن يتحرى في اختيار مَن يأتمنه على سرّه، إذ ليس كل مَن كان على الأموال أمينًا كان على الأسرار مؤتمنًا. والفقر عن الأموال أيسر من الفقر عن إذاعة الأسرار، لأن الإنسان قد يذيع سرّ نفسه بمبادرة لسانه وسقط كلامه، ويشح باليسير من ماله، حفظًا له وضنًا به، ولا يرى ما أضاع من سره كبيرًا، في جنب ما حفظه من يسير ماله، مع عظم الضرر الداخل عليه. فمن أجل ذلك كان أمناء الأسرار أشدّ تعذرًا من أمناء الأموال، وكان حفظ المال أيسر من كتم الأسرار، لأن أحراز الأموال منيعةٌ، وأحراز الأسرار بارزةٌ، يذيعها لسان ناطق، ويشيعها كلام سابق[٢٥٧].

الأخلاق والسرّ:

لا يمكن دراسة موضوع السرّ دون الوقوف على علاقة مباحث السر وأبوابه، بمبادئ الأخلاق الإنسانية والدينية. فالسرّ وكتمانه، فعلٌ إنساني ذو ارتباطين: فرديّ واجتماعي، مبدؤه وأثره لا ينفصلان في الغالب عن الانتساب إلى فعل الخير أو الشر. وهذا مرهون بإرادة الإنسان ونيّة قلبه، كما يرتبط بأثر الفعل سلبًا كان أو إيجابًا. لا يعنينا أن نخوض في مبحث شامل في هذا الإطار، إذ ليس بحثنا فلسفيا بحتا، لكنّا

---

[٢٥٦] كثيّر بن عبدالرحمن: ديوان كثيّر عزة. ص ١٧٦. السَمَيْدَع: السيد الكريم الشجاع.

[٢٥٧] الماوردي: أدب الدنيا والدين. انظر: ص ٢٩٦.

www.mtenback.com

سنقف على مفاصل أساسية وخطوط عريضة فقط. على أن حديثنا في الموضوعات السابقة لم ينفصل أصلاً عن الأحكام الأخلاقية، بسبب طبيعة الموضوع وارتباطه العضوي بمبحث الأخلاق.

من المفيد أن نبدأ بأحد التعريفات المقبولة التي تتناول المعنى الأخلاقي للستر؛ فهو أن يكون في الإنسان روح الميل إلى إخفاء ما ينبغي إخفاؤه، وأن يتنزّه عن الرغبة في إظهار العورات أو إبداء العيوب أو كشف المحرمات، وأن يخفي بعض القربات التي تكون أقرب إلى الإخلاص فيها إذا قام بها صاحبها في طيّ الكتمان بلا تظاهر أو إعلان.[٢٥٨]

وأول ما يتبادر إليه الحديث عمليًا، هو الانطلاق من فكرة الطهارة الداخلية للإنسان ونظافة سره. لقد ركّز الإسلام كثيراً على هذه النقطة وعدّها أساسا لابدّ منه لبناء سلوك إنساني يرضى عنه الله ويحقق الخلافة الصالحة وعمارة الأرض.

وقد جاء في الحديث: «البِرّ حسن الخلق، والإثم ما حاك في صدرك وكرهتَ أن يطّلع عليه الناس»[٢٥٩]. وقال الإمام أحمد لابنه عبد الله: يا بني انوِ الخير، فإنك لا تزال بخير ما نويت الخير[٢٦٠]. وسئل أحمد بن خضرويه: أيّ الأعمال أفضل؟ قال: رعاية السر عن الالتفات إلى شيء سوى الله[٢٦١]. وفي إرشاد تربوي يصون التزام الفرد ونظافة المجتمع، ويعلي دور الضمير الداخلي في الرقابة على السلوك: «.. إذا عملت سيئة فأحدث عندها توبة، السر بالسر والعلانية بالعلانية»[٢٦٢].

---

[٢٥٨] الشرباصي، أحمد: موسوعة أخلاق القرآن، بيروت، دار الرائد العربي، ط١، (١٤٠١هـ/١٩٨١م)، انظر: ج٣، ص١٤٢.

[٢٥٩] المنذري: مختصر صحيح مسلم، الحديث رقم ١٧٩٤، ص ٥٣٧.

[٢٦٠] النشاشيبي: نُقل الأديب، ص ١١١.

[٢٦١] ابن الجوزي: أسرار العشاق، ص ٢٠٤.

[٢٦٢] رواه الطبراني، كما في: المطر: قبس من نور محمد ﷺ، الحديث رقم ٣٠٢، ص ٨٥.

www.mtenback.com

أدركت العرب أن الجوهر الباطن للإنسان لا يلبث أن يطفو على السطح، ويعبر عن حقيقته، لذلك لم يكن بدٌّ من الالتفات إلى القلب والعناية بسلامته من الآفات والغش. قالوا: من سلمت سريرته سلمت علانيته[٢٦٣]. وفي سبيل الغاية نفسها أنشد عمر بن عبد العزيز معلنًا نهجه في السلوك، حيث لا يخالف ظاهرُ عمله باطنه[٢٦٤]:

فَسِرِّي كَإِعْلانِي وَتِلْكَ خَلِيقَتِي وَظُلْمَةُ لَيْلِي مِثْلُ ضَوْءِ نَهارِي

ويجري الإمام الثوري تحليلاً أخلاقيًا موجزًا يقارن فيه بين حالات السر والعلن، في معادلات معيارية. قال: إذا استوت السريرة والعلانية فذلك العدل، وإذا كانت العلانية أفضل من السريرة فذلك الجور، وإذا كانت السريرة أفضل من العلانية فذلك الفضل[٢٦٥].

والعمل في ثوابه وفضله يتوقف قبوله على الخيرية المشتركة بين الظاهر والباطن. قال الشاعر[٢٦٦]:

إِذَا السِّرُّ وَالإِعْلانُ فِي المُؤْمِنِ اسْتَوى فَقَدْ عَزَّ فِي الدّارَيْنِ وَاسْتَوْجَبَ الثَّنا

فَإِنْ خالَفَ الإِعْلانُ سِرًّا فَمالَهُ عَلَى سَعْيِهِ فَضْلٌ سِوى الكَدِّ والعَنا

على أنه من الحاصل بالفعل أن الصادق قد يبتلى بالذنب، فيتستر لذلك حياء لغير طلب الرياء، مع المعرفة بأن الله لا يحب إظهار المعاصي، وأنّ من أظهر سوءًا فهو المتهتك، وهو أعظم عند الله ممّن استتر بستره[٢٦٧].

---

[٢٦٣] التوحيدي: البصائر: والذخائر، ج١، ص١٢.

[٢٦٤] الميداني: مجمع الأمثال، ج ٢ ص ٣٣٠.

[٢٦٥] التوحيدي: البصائر والذخائر، ج ٥ ص ٥٧.

[٢٦٦] الغزالي: إحياء علوم الدين، ج ٤ ص ٥٦٥.

[٢٦٧] المحاسبي: الرعاية لحقوق الله، انظر: ص ٢٧٠.

www.mtenback.com

وقد ضرب الله سبحانه بنفسه المثل في حُسْن السَّتر وفضل المغفرة، في دعوة لنا للتخلق بأخلاقه في إسباغ الستر والتماس العذر، حسبما ورد في الحديث: «يُدنى المؤمن يومَ القيامة من ربه عز وجل حتى يضع عليه كنفه، فيقرره بذنوبه، فيقول: هل تعرف؟ فيقول: ربِّ أعرف. قال: فإني قد سترتُها عليك في الدنيا، وإني أغفرها لك اليوم..»[٢٦٨]. لكن بعض الناس يغترّون بطول ستر الله عليهم وإمهاله لهم، فلا يظهر للعامة منهم إلا خيرٌ، فيغترون ويظنون أن ذلك لم يكن إلا ولهم عند الله منزلةٌ عظيمة! وما أحرى أنْ يكون هذا استدراجًا من الله، إذ علم واحد هؤلاء من نفسه خلاف ما يُثنون عليه به، والله يعلم خلاف ما يقولون فيه. فهو لا يأمن مقته على ما يعلم أنهم لو علموا به لمقتوه وأبغضوه عليه[٢٦٩].

وعدّ القرآن الكريم ارتكاب المحظورات، ولو كان صاحبها خاليًا، نوعًا من انعدام الشعور وقلة الحياء، قال تعالى: ﴿وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَارُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ﴾[٢٧٠].

وعدّ الإسلام تركَ الآخرين وخصوصياتهم أدبًا أخلاقيًا رفيعًا[٢٧١]. والشاعر العربي كان حكيما ومهذّبا حين قرّر أن لكل إنسان خصوصياته، وأن التدخل فيها فضول ودناءة، قال كعب بن سعد الغنويّ[٢٧٢]:

---

[٢٦٨] المنذري: مختصر صحيح مسلم، الحديث رقم ١٩٣١، ص ٥٧٩.

[٢٦٩] المحاسبي: الرعاية لحقوق الله، انظر: ص ٤٧٢، ص ٤٧٤.

[٢٧٠] سورة فُصِّلت، الآية ٢٢.

[٢٧١] ورد في الحديث: «إن من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه». أخرجه الإمام الترمذي: سنن الترمذي الحديث رقم ٢٣١٩، ج٧ ص٧٨.

[٢٧٢] الأبشيهي: المستطرف، ج١ ص٢٢٥، وأيضًا: المبرّد: الكامل، ج٢ ص٧٠١- ٧٠٢.

www.mtenback.com

وَلَسْتُ بِمُبْـــدٍ لِلرجَّـــالِ سَـــرِيرَتِي ... وَلا أَنَـــا عَـــنْ أَسْـــرَارِهِمْ بِسَـــؤُولِ
وَلا أَنَـــا يَوْمًـــا لِلْحَدِيـــثِ سَـــمِعْتُهُ ... إِلى هَهُنَـــا مِـــنْ ههنـــا بِنَقَـــولِ

والتراث العربي مملوء بأخبار تربط الستر بأعلى معاني النبل والمـــروءة. يـــروي المؤرخون أنه حدث في مجلس موسى بن إسحاق القاضي بالري سنة (٢٨٦هـــــ) أن تقدّمت امرأة فادّعى وليها على زوجها خمسمئة دينار مهرًا، فأنكر، فقـــال القـــاضي: شهودك، قال: قد أحضرتهم. فاستدعى بعض الشهود أن ينظر إلى المرأة ليشير إليهـــا في شهادته. فقال الزوج: تفعلون ماذا؟ قال الوكيل: ينظرون إلى امرأتك وهـــي مســـفرة لتصح عندهم معرفتُها. فقال الزوج: إنّي أشهد القاضي أنّ لها عليّ هذا المهر ولا تسفر عن وجهها. فقالت المرأة: فإني أشهد القاضي أنْ قد وهبتُ له هذا المهر وأبرأته منه في الدنيا وفي الآخرة. فقال القاضي: يُكتب هذا في مكارم الأخلاق[٢٧٣].

إن شأن المحب المفتون، أن يعبّر بما يلهمه قلبه ويبلغه عقله، عن إخلاصه وتعلّقه، فكان من أخصّ أخلاقه ههنا أن يستر خبر محبوبته ويكتم سرها صغيرا كان أو جليلا، لكن المشكلة أن بعض الأسرار لابد أن تخرج رغمًا عن المحب، وسيقع هو في إشكالية جدلية حين يحاول تبرير ما حدث! قال الشاعر[٢٧٤]:

لِســـانِي كَتُـــومٌ لأَسْـــرارِكُمْ ... وَدَمْعِي نَمُـــــومٌ لِسِـــرِّي مُذِيـــعُ
فَلَـــوْلا الدُّمُـــوعُ كَتَمْـــتُ الهَـــوى ... وَلَوْلا الَهوى لَمْ تَكُنْ لِـــي دُمُـــوعُ

ولمكارم الأخلاق باب عريض تتصل به مباحث السر، وقد تعرضنـــا للعلاقـــة بينهما دون توضيح وتفصيل، فوجب أن نذكر أن كتم أسرار الآخريـــن ينطـــوي في

---

[٢٧٣] النشاشيبـــي: نُقل الأديب، ص ٦٢.

[٢٧٤] الجاحظ، عمرو بن بحر: المحاسن والأضداد، تحقيق: فوزي عطوي، بيروت، الشركة اللبنانية للكتاب، (١٩٦٩م)، ص٢٣.

www.mtenback.com

أحيان كثيرة، على محامد خلقية رفيعة، ويرفع مكانة أقوام بعد أن يمتحن أخلاقهم وجواهرهم، فتتكشف معادنهم عن أصالة وسمو ونقاء. وفي كل قصة يكتم فيها أحدهم خبرًا، ينجلي الموقف عن مكرمة دفعته لأداء هذه الأمانة ومبدأ أخلاقي يقف خلف التزامه وحسن فعله.

أول هذه المكارم الأخلاقية شعور الإنسان بجسامة الأمانة الملقاة على عاتقه وبواجب حفظها. والحديث الشريف يؤكد حجم هذه الأمانة: «إذا حدّث الرجل الحديث ثم التفت فهي أمانة»[٢٧٥]. والكتم يمكن أن يكون سببا لتطهير النفس وتصفيتها من حُب الذات والشهرة، فهو سبيل لترويضها وتهذيبها، وهو شأن الروحانيين والزاهدين. وهو لديهم منهج خاص ينسحب على جوانب سلوكية ونفسية، تلتقي على هدف واحد في النهاية. يذكر المؤرخون أن الإمام الغزالي دخل مدينة دمشق متنكرا ونزل السميساطية، وكان يقهر نفسه على تنظيف المراحيض إذلالا لها، ويدخل المسجد بزيّ العوام، وكان ليلة في المسجد فجاء قروي يسأل عن مسألة فدلّوه على دكّة المفتين، فسألهم فلم يعرفوا جوابها، فدعاه الغزالي فقال: ما مسألتك؟ قال: إن المفتين لم يعرفوا جوابها أفتعرف أنت؟ قال: هاتها. فألقاها عليه، فأجابه عنها. فعاد الرجل إليهم، وقال: أنتم لم تعرفوا الجواب وقد عرفه هذا العامي، وخبرهم بجوابه، فشُدِهوا وقاموا إليه فقالوا: من أنت؟ إنّ لك لشأنًا واستحلفوه

---

[٢٧٥] الإمام الترمذي: سنن الترمذي الحديث رقم١٩٦٠، ج٦، ص١٩٠. من الأمانة ما نُقِل عن عالِم مدينة حماة بسورية، الشيخ محمد الحامد، أنه اضطر لإجراء عملية جراحية في بيروت، فقال لتلميذه قبل إجرائها: «يا بنيّ إن الشيوخ بيوت أسرار المسلمين، وأخشى أن أقول شيئًا، وأنا أصحو من المخدّر، فإذا حدث شيء من هذا، فلا أسمح ببقاء أحد عندي إلا أهلي»، من كتاب: «العلاّمة المجاهد الشيخ محمد الحامد» لعبد الحميد طهماز، دمشق، بيروت، دار العلم، ط١، (١٣٩١هـ/١٩٧١م)، انظر: ص٦٦.

www.mtenback.com

فخبرهم، فاحتفلوا به وسألوه أن يعقد لهم من الغد مجلسًا، وبحثوا عنه في الغد فلم يجدوه، لأنه كان قد هرب في الليل[٢٧٦].

ومن الكتم ما يؤكد به صاحبه صفاء النية وصدق الإخلاص، في التوجه نحو الغاية. من ذلك ما نعرفه من فضل صدقة السرّ على صدقة العلن، مع أنّ في كل منهما خيرا. إن في صدقة السر تربية للقلب، ومراقبة له، وتدريبًا على توحيد الغاية والانقطاع عما سواها، وعدم تسخير عمل الصدقة لنيل سمعة وشهرة[٢٧٧].

ومن الكتم ما هو أدب باللسان وورعٌ في السلوك، حيث يتحرج صاحبه من سوء الأدب وغِشّ القلب. يروى أن رجلاً دخل على سليمان بن عبد الملك في ثيابٍ رثّة، فقال له عبد الملك: ما يحملك على لبس هذا؟ قال: أكره أن أقول الزهد فأطري نفسي، أو أقول الفقر فأشكو ربّي[٢٧٨].

ومن الكتم ما سببُه الحياء والتواضع، مع رفعةِ القدر وشرف النفس.

قيل لعليّ بن الحسين - وكان بيّن الفضل - ما بالُكَ إذا سافرتَ كتمتَ نسبَك أهلَ الرُّفقة؟ فقال: أكره أن آخذ برسول الله ﷺ ما لا أعطي مثلَه[٢٧٩].

والكتم، بعد ذلك، سببٌ لكسب الثقة ونيل الاحترام، ومجلبةٌ للمديح والشهرة بالفضل. وصف أعرابيٌّ قومًا فقال: صدورهم قبور الأسرار، وسيوفهم آفات الأعمار[٢٨٠].

---

[٢٧٦] الطنطاوي، علي: رجال من التاريخ، دمشق، بيروت، المكتبة الأموية، ط٢، (١٩٦٨م)، انظر: ص١٧٦.

[٢٧٧] راجع مبحث أنواع الكتمان المحمودة، تحت عنوان: صدقة السرّ.

[٢٧٨] التوحيدي: البصائر والذخائر، ج٢، ص٩١.

[٢٧٩] المبرّد: الكامل، ج٢، ص٤٨٢.

[٢٨٠] التوحيدي: البصائر والذخائر، ج٥، ص٩١.

www.mtenback.com

وعدم تحقّق هذه الصلة في الإنسان يزلزل الثقة به، ويكون سببًا لاجتناب الناس له، خصوصا إذا كتم الحسن ونشر القبيح. قال المعرّي[٢٨١]:

أَعُوذُ بِاللهِ مِنْ قَوْمٍ إِذا سَمِعُوا خَيْرًا أَسَرُّوهُ، أَوْ شَرًّا أَذاعُوهُ

والالتزام بالكتم دليل على التخلّق بالصبر. فما أشد ضروب الألم التي يقاسيها من يحبس في صدره سرًّا أو خبرًا. لذا استحق النعت بالصبر من كظم هذا عن البيان ودفنه في سراديب القلب وثنايا الصدر. كانت العرب تقول: أصبر الناس من صبر على كتمان سرّه و لم يبده[٢٨٢].

والكتم يصقل خلُق الكرم عند أهله، ويبين عندهم تمازج الكرم الماديّ والمعنويّ بفضائل النفس.

ولا يكون الخطر قائمًا إذا وصل السرّ إلى إنسان كريم سامي النفس سمح الخلائق. يروى أنه وقع في يد الخليفة المأمون كتابٌ من أهل الكرخ إلى عليّ بن محمد بن جعفر يدعونه للخروج ويعدونه بالنصرة، فقال المأمون: نحن أولى من ستر هذا، و لم يشِعْهُ. ودعا عليّ بن محمد فقال له: قد وقفنا على أمرك، وقد وهبنا ذلك لعليّ وفاطمة، فاذهب فتخيّر ما شئت من الذنوب فإنا نتخيّر لك مثلَ ذلك من العفو[٢٨٣].

وإنّ فضيلة الكرم لتتجلّى بأحسن صورها بين الكريم ومن سَعِد بصُحبته، حيثُ يُمتحن معدن الكريم، ولا يكون الجزاء من جنس العمل! قال الشاعر[٢٨٤]:

وَلِي صاحِبٌ سِرّي المُكَتَّمُ عِنْدَهُ مَحارِيقُ نِيرانٍ بِلَيْلٍ تُحَرَّقُ

---

[٢٨١] المعرّي: ديوان لزوم ما لا يلزم، ج ٢ ص ٤٨٩.

[٢٨٢] المبرّد: الكامل، ج ٢ ص ٧٠١.

[٢٨٣] التوحيدي: البصائر والذخائر، ج ٦ ص ٢٢٥.

[٢٨٤] البيهقي: المحاسن والمساوئ، ج ٢ ص ٨٧.

www.mtenback.com

عَطَفْتُ عَلَى أَسْرارِهِ فَكَسَوْتُها ثِيابًا مِنَ الكِتْمانِ مَا تَتَخَرَّقُ

وصاحب الخلق الكريم لا يفشي أسرار صاحبه إذا اضطربت علاقتهما، ولا تكون أسراره محلّ عقوبة أو وسيلة أذى وانتقام. قال الشاعر[٢٨٥]:

إنَّ الكَرِيمَ الَّذِي تَبْقَى مَوَدَّتُهُ وَيَحْفَظُ السِّرَّ إنْ صَافَى وَإنْ صَرَمَا

لَيْسَ الكَرِيْمُ الَّذِي إنْ زَلَّ صَاحِبُهُ بَثَّ الَّذِي كَانَ مِنْ أَسْرارِهِ عَلِمَا

والكتم فضيلة أخلاقية عليا، حين يكون سترا لخطأ فادح وقع فيه إنسان، فمسّ بأذاه صاحبه الذي كشف فعله، فستر عليه وأبى أن يفضحه. ذكر التوحيدي أنّ رجلا عثر على امرأته وهي على فاحشة، فاجتمع أهلها إليه وقالوا: عرِّفنا ما رأيت من زوجتك، قال: سبحان الله، امرأةٌ كان زمامها بيدي، وكنتُ بعلاً لها لم أُبح بما كان منها، فلمّا بانت مني، وصارت غريبةً أفضحُها؟! لا يكون ذلك أبدًا[٢٨٦].

يتجاوز الكتمان هذه الفضائل فضلاً حين تكون غايته حفظ شعور إنسان مكسور الجناح، مع عذاب نفسي يقع عبؤه على من اختار القيام بهذا السلوك الجليل. إنها رحمة من طراز فريد..

وآخر ما يقال في هذا المبحث، إنّ كتمان الأخبار يكون وسيلة لإثبات الوفاء والإخلاص تجاه الأحبّة الذين غيبهم الموت، وبرهانًا أخيرًا على عمق محبتهم في القلب، والحزن البالغ على فقدهم. قال بشار بن برد[٢٨٧]:

أَبْكِي الَّذِين أَذاقُونِي مَوَدَّتَهُمْ حَتَّى إذَا أَيْقَظُونِي فِي الهَوى رَقَدُوا

---

[٢٨٥] البكري: فصل المقال في شرح كتاب الأمثال، ص ٦٠.

[٢٨٦] التوحيدي: البصائر والذخائر، ج ٨ ص ٢٨.

[٢٨٧] بشار بن برد، أبو معاذ: ديوان شعر بشار بن برد، جمع وتحقيق: السيد بدر الدين العلوي، بيروت، دارالثقافة، (بلا تاريخ)، ص ٦٧، وأيضًا: الوشّاء: الموشّى، ص٦٤.

www.mtenback.com

لأَخْرُجَنّ مِنَ الدُّنْيـــا وَسِـــرُّهُمُ بِيْنَ الجَوانِحِ لَمْ يَعْلَـمْ بِـهِ أَحَـدُ

عقوبة مفشي السر[٢٨٨]:

لا ينبغي للعاقل أن يظهر سِرًّا حتى يعلم أنه إذا ظهر لا يتأذى بظهوره. ومعلومٌ أنّ أدعى أسباب بثّ السرّ طلب الاستراحة ببثّه. وربّ مظهر سرًا لزوجته فإذا طُلِّقت بثته فهلك. أو لصديقه فيظهر عليه حسدًا له إذا كان مماثلاً، وإنْ كان عاميًّا فالعـــاميّ أحمق[٢٨٩].

عقوباتُ الكاشفين؛ كاشفي أسرارهم أو أسرار غيرهم، متنوعة، في نصـــوص الشريعة، وفي أحكام الناس، وواقع الظروف التي تحمل أبدا حكمة الكون!

فأول عقوبات من يكشف سرّه، أنه يستحقّ اللوم والتقريع بدرجة لا تقلّ عـــن لوم صاحبه الذي أفشاه، لأنه دلّ على عورة نفسه في طيش وضعف وقلّة انتفاع. قـــال الشاعر[٢٩٠]:

إِذَا ما ضَاقَ صَدْرُكَ عَـــنْ حَدِيْـــثٍ فَأفشـــتْهُ الرِّجـــالُ فَمَنْ تَلُـــــومُ

إِذَا عاتَبْتُ مَنْ أَفْشَـــى حَدِيثِـــي وَسِـــرِّي عِنْـــدَه فَأَنـــا الظَّلُـــومُ

كما أن كشف الستر، بمضمونه المعنوي أو المادي، يمكـــن أن يكـــون ســـببا للسخرية والاستهجان من الناس الذين يشهدون مخالفة الآداب والأعراف الأخلاقية.

وصان الإسلام كرامة الإنسان ومروءته، بل أوجب عليه القيام بما يحفظها مـــن الاحتشام والتستر، والظهور بما يوافق الآداب العامة ولا يخدش النظـــام الأخلاقـــي في المجتمع. ورد في الحديث عن النبي ﷺ أنه قال: «كلُّ أمتي معافى إلا المجـــاهرين، وإنّ

---

[٢٨٨] راجع المبحث الأول من الفصل الثالث.

[٢٨٩] ابن الجوزي: صيد الخاطر، انظر: ص ٣٧٧.

[٢٩٠] ابن قتيبة: عيون الأخبار، ج ١ ص ٣٩.

www.mtenback.com

من المجاهرة أن يعمل الرجل بالليل عملاً، ثم يصبح وقد ستره الله، فيقول: يا فلان، عملتُ البارحةَ كذا وكذا، وقد بات يستره ربّه، ويصبح يكشف سِتر الله عنه»[٢٩١].

وقد قيل لبعض العلماء: من شرّ الناس؟ قال: من لا يبالي أن يراه الناس مسيئًا[٢٩٢].

ونصَح الحكماء باجتناب العداوات الناشئة عن مخالفة الآخرين دون طائل، ودَعَوا لاتّباع سياسة المداراة التي هدفها إظهار ودعم نقاط الالتقاء، مع ستر وتحاشي نقاط الاختلاف. قال بعضهم: رأس المداراة ترك المماراة[٢٩٣].

ولعل من المفارقات المؤلمة أن يكتم المرء العاقل خبر نفسه، ثم تُحرجه الظروف وتسوقُه لإبداء ما يخفيه، فيحتار بين الكتمان والبيان، وقد علم أنه إن أعطى الناس ما يريدون وروّى فضولهم كانت عاقبتُه أشدَّ سوءا. في هذا المعنى قالت العرب في أمثالها: رُبَّ سامعٍ خبري لم يسمع عذري[٢٩٤] واعتبروا الشطر الأول من البيت التالي مثلا من الأمثال[٢٩٥]:

لَعَلَّ لَهُ عُذْرًا وَأَنْتَ تَلُومُ ... وَكَمْ مِنْ مَلُومٍ وَهْوَ غَيْرُ مُلِيمِ

إذا كان إفشاء المرء لسره منقصة سلوكية تجرّ الوبال على صاحبها، وتهيج كوامن الخطر والأذى، والقيل والقال.. فإنّ استكشاف أسرار الآخرين وكَشْف عوراتهم عملٌ مُستَقبَح لا يُغتفر، وهو أبلغ أذىً من سابقه، لأنه إن كان للمرء حرية التصرف فيما يخصّه، فليس له ذلك بحق الناس؛ إذ أعراضُ الناس محفوظة مَصُونة.

---

[٢٩١] الزّبيدي: التحريد الصريح، الحديث رقم ١٩٤٤، ص ٦٦٩.

[٢٩٢] الجاحظ: البيان والتبيين، ج ٣ ص ١٦٥.

[٢٩٣] المقدسي: الآداب الشرعية والمنح المرعية، ج ٣ ص ٤٧٩.

[٢٩٤] البكري: فصل المقال، ص٧٢: إني لا أستطيع أن أعلنه لأن في الإعلان أمرًا أكرهه ولستُ أقدر أن أوسع الناس عُذْرًا.

[٢٩٥] البكري: فصل المقال في شرح كتاب الأمثال، ص ٧٣.

www.mtenback.com

وقد يئس بعض العاقلين وقنطوا من أن يأمنوا شرور الناس في استطلاعهم للأخبار وبثّهم للعثرات، فانطووا على أنفسهم وغادروا المجتمع بقلوبهم ومشاعرهم، ما داموا لا يستطيعون ذلك بأجسامهم وأشخاصهم. قال سفيان: ما وجدتُ من يغفر لي ذنبا ولا يستر عليّ زلّةً، فرأيتُ في الهرب من الناس سلامة [٢٩٦].

وعدّ أصحاب الحكمة والأدب أن كشف سر الآخر، وخصوصًا إذا كان صديقًا، هو علامة الخيانة، ودلالةٌ على وجوب قطع الصلة بمن فيه هذه الخصلة التي ترتبط بسلسلة من خصال السوء. قال الإمام الشافعي [٢٩٧]:

وَلاَ خَيْرَ فِي خِلٍّ يَخُونُ خَلِيلَهُ ... وَيَلْقَاهُ مِنْ بَعْدِ المَوَدّة بِالجَفَا

وَيُنْكِرُ عَيْشًا قَدْ تَقَادَمَ عَهْدُهُ ... وَيُظْهِرُ سِرًا كانَ بِالأَمْسِ قَدْ خَفَا

وكشف السر مدعاة لتهمة فاعله أحيانًا، لأن عمله بالأصل لا يدل إلا على نية سوء. يروى أن رجلاً قال للوليد بن عبد الملك: إن فلانًا نال منك، قال: أتريد أنْ تقتصّ أوتارك من الناس بي؟! [٢٩٨]

ويتجرأ بعض الحمقى ليطولوا بما يعلمون وُجهاءَ وذوي مكانة عالية في المجتمع، فينالون شيئًا ويُحرمون أشياء. ذكر التوحيدي أن رجلاً وقف على معاوية وهو في مجلس العامة فقال: يا أمير المؤمنين، إنّ لي حرمة، قال: وما هي؟ قال: دنوت من ركابك يوم صفين وقد قربت دابتك لتنهزم، فقلتُ لك: والله لو كانت هند بنتُ عتبة مكانك ما هربَتْ، أين تهربُ وقد قلّدتْك العرب أزمّة أمورها؟ فقلت لي: اخفض صوتك لا أمّ لك، ثمّ ثبتّ وثابَتْ حُماتك إليك. قال: صدقت، ولوددْتُ أنك الآن

---

[٢٩٦] المقدسي: الآداب الشرعية والمنح المرعية، ج ٣ ص ٤٨١.

[٢٩٧] الإمام الشافعي: ديوان الشافعي، ص ٦٠.

[٢٩٨] التوحيدي: البصائر والذخائر، ج ٥ ١٧٢.

www.mtenback.com

خفضْت من صوتك، يا غلامُ أعطه خمسين ألف درهم، ولو أحسنت الأدب لأحسنّا لك الزيادة [٢٩٩].

ومن الأسرار ما تتجاوز بعواقب كشفها لومًا أو احتقارًا أو فقد ثقة من الناس، فينال صاحبها عقاب إلهي صارم. فهي إذن أسرارٌ مصونة بحصن الله ومستورة بأمره، لحكمة أخلاقية واجتماعية. من هذه الأسرار ذات الحرمة، ما يكون بين الرجل وزوجته من تفاصيل العلاقة الجنسية. ونشرُها يدلّ على فقدان النخوة وهتك العِرض والتشبه ببعض الحيوانات - لا كلها - في موت الغيرة والناموس، فاستوجب لذلك مفشيها عقابا شديداً[٣٠٠].

ومن العقوبة التي تحلّ بكاشفي أسرار الناس أن يسلّط الله عليهم ما كانوا أذاقوه لهم من الفضح وإسقاط المروءة والهوان على الناس. ورد في الحديث: «.. من تتبّع عورة أخيه المسلم تتبّع الله عورته، ومن تتبّع الله عورته يفضحْه ولو في جوف رحله»[٣٠١].

وجعل الله محبة شيوع الفواحش بين المؤمنين إنذارًا بعقوبة عظيمة هدد بها في كتابه العزيز. قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾[٣٠٢] ومحبة إشاعتها تكون بإذاعة أخبارها وإشهار أصحابها،

---

[٢٩٩] التوحيدي: البصائر والذخائر، ج٩، ص١٧٤-١٧٥.

[٣٠٠] المنذري: مختصر صحيح مسلم، الحديث رقم ٨٣١، ص٢٤٠. «إن من أشر الناس عند الله منزلة يوم القيامة رجل يفضي إلى امرأته وتفضي إليه، ثم ينشر سرّها».

[٣٠١] الإمام الترمذي: سنن الترمذي، انظر: الحديث رقم ٢٠٣٣، ج٦، ص٢٣٢.

[٣٠٢] سورة النور: ١٩.

www.mtenback.com

لتنكسر الرهبة منها ويسهلَ اقترافها فتضيع الأخلاق وينحل المجتمع، وهيهات أن يتمّ الإصلاح بعد ذلك وما الذي يعيد الشهوات الطليقة إلى سجنها ويردع النفس التي استمرأت لذة الفاحشة.

أهمية كتمان السر في حياة الأفراد والأمة:

لسنا في حاجة لأن نعيد القول في محاسن الكتمان وضرورته، وأن نسرد ثانية مخاطر كشف الأسرار وعدم التدقيق في نقل الأخبار. باختصار: إن الكتمان يعصم الإنسان من الزلل ويضمن له السلامة، ويجعله بعيدا عن مرامي الكلام والنظر. فكم من مستترٍ مكتوم لا يلقى له بال، كان أجمل حالا وأحسن مقاما من مكشوف تتناوله الألسنة والقلوب، وتتفاوت فيه الآراء بين مادح وقادح ومحب ومبغض..

والكتمان يترك الإنسان مهيبًا مستترًا لا يُدرى حاله، فلا يُعلم به ولا يبتلى بأدعياء التحليل النفسي والاجتماعي؛ هؤلاء الذين يتسلّون بتقسيم الأفراد إلى شرائح ومستويات، ودراسة المؤثرات البيئية المختلفة، ويراقبون أثرها وفعلها في (الحالة) المدروسة ليثبتوا لأنفسهم أنهم يفهمون بأعلى درجات الفهم. ما أكثر هؤلاء المتحذلقين، من العامة والخاصة، خصوصًا في عصرنا. لا يمكن للمرء أن ينتهي من شرور هؤلاء على أية حال؛ لكنه أن يجعلهم في عماء وجهل خيرٌ من أن يكون صفحة مكشوفة أمامهم، ولن يخلص بذلك إلى خير. وأما إفشاء أسرار الآخرين ففيه من السوء والأذى أكثر مما في إفشائه سر نفسه، لما فيه من تعد على حقوق الناس ودلالة على عوراتهم، وما يسببه من فقد الثقة وإشعال الفتن وإفساد الأخلاق..

وإذا ساد منهج الكتمان بين الأفراد، وهو أمر يتولى العقلاء والحكماء الدعوة إليه، فإنه ينتقل إلى حالة من الوعي الاجتماعي والنضج الفكريّ العام، وتتحقق فوائده على صعيد الأمة والدولة فضلاً عن أفراد المجتمع وآحادهم.

www.mtenback.com

هذا في حياة الأفراد. أما في حياة الأمة فله شأن عظيم، وهو نظام خطير متعـــدد الشروط والارتباطات التي يتوقف على نجاحها سلامة الأمة من أحد أسباب الانهيـــار والخراب. وهو تقنية عالية متعددة الأشكال التي تتكامل فيما بينها لتسهم في صـــون الأمة وتماسكها الأخلاقي والسياسي السلوكي.

تنسجم مكانة السر في حياة الأمة، مع نظام عام يسير عليه الكون. قال أحـــد الحكماء: «الدنيا إعلان وإسرار، وإقبال وإدبار، وإحلاء وإمرار»[٣٠٣].

وشأن الناس في سائر المجتمعات تلقّط الغرائـــب وسمـــاع الطرائـــف ونقـــل الأخبار[٣٠٤]، وهو أمر فطري طبعي تتحقق به غايات مهمة، كما أنه يمكن أن يكون أداة تخريب تفسد أخلاق المجتمع بإشاعة الفواحش وإذاعـــة أخبارهـــا، فتعتادهـــا الآذان وتستمرئها النفوس، لذا قيل: من سمع بفاحشة فأفشاها فهو كالذي أنشأها[٣٠٥].

وإذا خِيفَ من الإفشاء على مصالح عليا، وجبَ على أولي الأمر تقصّي الكتمان والمبالغة في الحذر قال بشار بن برد[٣٠٦]:

وَأَدْنِ عَلى القُرْبَى المَقَـــرَّبَ نَفْسَـــهُ وَلا تُشْهِدِ الشُّورى امْرأً غَيْرَ كـــاتِمِ

إنّ فردًا واحدًا يمكن أن يقيِّض له من القدرة على نشر الشرّ أو فعل الخير، بأداة السر، في أحواله المختلفة. جاء في الحديث: «إنَّ أخوف ما أخاف على أمتي كلَّ مُنافقٍ عليم اللسان»[٣٠٧]، وفي مقابل هذه الصورة القاتمة يأتي أفراد أخيار ذوو مكانـــة وأثـــر،

---

[٣٠٣] التوحيدي: البصائر والذخائر، ج ٣ ص ١٧٩.

[٣٠٤] قال سفيان بن عيينة: صحبتُ الناس خمسين سنة ما ستر أحد لي عورة، ولا ردّ عنّي غيبـــة! انظـــر: التوحيدي: البصائر والذخائر، ج ٨ ص ١٨٢.

[٣٠٥] التوحيدي: البصائر والذخائر، ج ٨ ص ٣٦.

[٣٠٦] بشار بن برد: ديوان شعر بشار بن برد، ص ٢٠٦، وذكره الجاحظ في البيان والتبيين، ج ٤ ص٤٩.

[٣٠٧] رواه أبو يعلى، كما في: المطر: قبس من نور محمد ﷺ، الحديث رقم ٦٢٧، ص ١٤٧.

www.mtenback.com

حيث هم قدوة لغيرهم، فيُصلحون المجتمع ويرسمون مثُلَه العليا في الالتزام، ويجعلون سرّهم وعلانيتهم سواء في الصدق والطهارة.

ولا يستقيم أمر أمّة إلا بدولة وسلطان، ولا يستقيم السلطان إلا بطاعة الأفراد والتسليم، وإماتة الفتن وإخفاء المخالفة. فإذا اختلطت الآراء وافترق الناس كان حريًّا أن يشقوا عصا الطاعة، وأن يعجب كل طائفة بما لديهم، ويجمعوا إليهم من معهم وينفوا من خالفهم، فتحترب الأمة ويضيع السلطان والدولة. لذا اقتضت مصلحة الغيورين على سلامة الوطن أن يتغاضوا عن القليل الذي ينكرونه من أولي الأمر، في سبيل وحدة الوطن وقوته على أعدائه.. نبّه لذلك الحكامُ والأمراء لما فيه من المصلحة العامة ومصالحهم. من ذلك ما خاطب به عُتبة أهلَ مصر لمّا وليهم: «..اعلموا أنّ لنا سلطانًا على أبدانكم دون قلوبكم، فأصلحوا لنا ما ظهر نكفيكم ما بطن، وأبدوا خيرًا وإن أسررتم شرًا وبالله نستعين»[٣٠٨].

لكن الخطر الكبير والشرّ العظيم، حين يجعل الحاكم نفسه محلا للمخاتلة والمراوغة، ما بين ظاهره وباطنه. على أن الحاكم المنزّه عن النفاق، لا يحتاج للكذب على الشعب وإن احتاج إلى لمداراة والحكمة. وإذا ورده خبرٌ عن سريرة مبغضة لم يحاسب عليها ما لم يُجهرَ بها. قال زياد بن أبيه: الإمرة تُذهب الحفيظة، وقد كانت من قوم إليّ هَنَاتٌ جعلتُها تحت قدمي، ودَبْر أذني، فلو بلغني أن أحدكم قد أخذه السّلُّ من بغضي ما هتكْتُ له سِتْرًا، حتى يبدي لي عن صفحته[٣٠٩].

---

[٣٠٨] التوحيدي: البصائر والذخائر، ج ٥ ص ١٧٠، ومثله ما نُقِل عن معاوية: إن الناس أعطونا طاعة وأعطيناهم أمانا، وأظهرنا لهم حِلْمًا تحته غضب، وأظهروا لنا طاعة تحتها حَقد وإن نكثنا بهم نكثوا بنا: البصائر والذخائر، ج ٨ ص ١٩٦.

[٣٠٩] المبرّد: الكامل، انظر: ج ١ ص ٢٣٠.

www.mtenback.com

وأمر الحاكم في سلطانه يقتضي كتمان أشياء[٣١٠] عن جميع الأولياء، وإفشاء أشياء إلى جميع الرعايا، وطيّ أشياء عن بعض الخواصّ، ونشر أشياء على بعض العوام، ولو تساوت رُتب جميع الناس معه شركوه في المُلْك، وكان ذلك داعية الهلك[٣١١] قال معاوية: أُعِنْتُ على عليّ بخصال: كان رجلاً ظُهَرَةً عُلَنَةً لا يكتم سِرًّا وكنتُ كتومًا لسرّي[٣١٢] وقيل لأبي مسلم الخراساني: بأي شيء أدركت هذا الأمر؟ قال: ارتديتُ الكتمان واتزّرْتُ بالحزم.. وأنشد في ذلك[٣١٣]:

أَدْرَكْتُ بِالحَزْمِ وَالكِتْمَانِ مَا عَجَزَتْ عَنْهُ مُلُوكُ بَنِي مَرْوَانَ إِذْ حَشَدُوا

فإذا كان الملك محصّنًا لسره، بعيدًا عن أن يُعرف ما في نفسه، متخيّرًا للوزراء، مهيبًا في أنفس العامة مكافئًا بحسن البلاء، كان خليقًا ببقاء ملكه[٣١٤].

والسلطان يستطيع بحيلة وحنكة، أن يكشف حال عمّاله المستترة، ليعرف مدى صلاحهم وأهليتهم للمنصب الذي منحهم أو سيمنحهم إياه.

يروى أنّ بلال بن أبي بُردة؛ وكان أمير البصرة وقاضيها، وفد على عمر بن عبد العزيز بخناصرة (بُليدة من أعمال حلب) فَسدك[٣١٥] بسارية من المسجد فجعل يصلي إليها ويديم الصلاة، فقال عمر للعلاء بن المغيرة: إن يكن سرّ هذا كعلانيته فهو رجل

---

(٣١٠) راجع رسالة «دروس في الكتمان من الرسول القائد»، للواء محمود شيت خطاب، بلا تاريخ ولا عنوان.

(٣١١) التوحيدي: البصائر والذخائر، ج ٧ ص ٦٠.

(٣١٢) الجاحظ: المحاسن والأضداد، انظر: ص ٢٠، وايضًا: المبرد: الكامل، ج ٢ ص ٦٩٩.

(٣١٣) الأبشيهي: المستطرف، انظر: ص ٢٢٥. وأيضًا: الجاحظ: المحاسن والأضداد، ص ١٩.

(٣١٤) التوحيدي: البصائر والذخائر، انظر: ج ٦ ص ٢٤١.

(٣١٥) سَدِك: لَصِق.

www.mtenback.com

أهل العراق غير مدافع، فقال العلاء: أنا آتيك بخبره. فأتاه وهو يصلي بين المغرب والعشاء، فقال: اشفع صلاتك فإن لي إليك حاجة، ففعل، فقال له العلاء: قد عرفت حالي من أمير المؤمنين، فإن أنا أشرْتُ بك على ولاية العراق فما تجعل لي؟ قال: لك عُمالتي[٣١٦] سنة. وكان مبلغها عشرين ألف درهم. قال: فاكتب لي بذلك، قال: فارقدّ[٣١٧] إلى منزله فأتى بدواة وصحيفة. فكتب له بذلك، فأتى العلاءُ عمر بالكتاب فلما رآه كتب إلى واليه على الكوفة: أما بعد؛ فإن بلالاً غرّنا بالله، فكدنا نغترّ فسبكناه، فوجدناه خبثًا كلّه والسلام[٣١٨].

وممّا يُستحسن ذكره في هذا الباب، أن وليّ الأمر إذا كان فطنًا سديدًا، لا ينبغي له أن يستشير من أعوانه أحدًا إلا خاليًا به، فإن هذا أموت للسر وأحزمُ للرأي وأجدر بالسلامة. فإنّ إفشاء السرّ إلى رجل أوثق من إفشائه إلى اثنين، وإفشاءه إلى ثلاثة كإفشائه إلى العامة[٣١٩].

كتمان السر بوصفه هدفًا تربويًا ومكونًا شخصيًا:

تتكامل الجوانب المختلفة للشخصية ووظائفها وصفاتها، لتصوغ شخصية فردية مميزة بتكوينها النفسي والحركي والسلوكي، وبالتالي الأخلاقي والوجداني، فتكون في النتيجة مقبولة من المجتمع أو مرفوضة، ناجحة أو خاسرة.

والقدرة على كتمان السر مكوّن نفسي وأخلاقي في الشخصية، يحتاج إلى تربية سلوكية ورعاية، ليأخذ محلّه الذي لا يحلّ غيرُه فيه، في الصياغة النهائية للشخصية بعد

---

[٣١٦] العُماله: أجرة العامل.

[٣١٧] ارقدّ: أسرع.

[٣١٨] المبّرد: الكامل، ج١، ص٣٩٥.

[٣١٩] ابن قتيبة: عيون الأخبار، انظر: ج١، ص٢٧.

www.mtenback.com

نضجها واستكمال نموها وهو لا يؤمّل كثيرًا أن يتغير أو يتحوّر بسهولة، بعد أن أخذت سماتها قالبًا معينًا في الشخصية، ذا ارتباطات معقدة يمكن فهمها وتفكيكها من خلال مراقبة مفردات السلوك.

فخلُق الكتمان يجب أن يُنَشّأ في ضمير الإنسان وحسه منذ سِنيْ الطفولة، حتى يقدّر له أن يصبح خُلقًا سلوكيًا أصيلاً، فلا يجد مشقة في الانضباط به إذا كبر وقطع سنوات الطفولة، ولا يضطر لأن يقع في أخطاءٍ أثمانها باهظة، حتى ترعوي نفسه وتسعى لاكتساب التخلق بالكتمان.

إن التربية على أخلاق الكتمان تقتضي قدوة صالحة ومثلاً أعلى، يبحث عنه الطفل في أحضان أسرته، ولا سيما الوالدين، فيتلقى منهما بشكل عفوي سائر عاداته الانفعالية والسلوكية ويتخلق بأخلاقهما ويسترشد بنصائحهما، معتقدًا أنه بتقليدهما والاستجابة لأوامرهما، يكون قد حقق كل ما يُنْتَظَر منه لكي يصبح عضوًا صالحًا في الأسرة، ينال الرضا والقبول. وهذه في الواقع غاية كل طفل، وهي أيضًا غاية كل كبير وإن أخذت هنا شكلاً متطورًا معقدًا.

وإذا كان كل طفل، مهما تكن درجة ذكائه وسرعة تلقيه، يستقبل الأساليب السلوكية والفكرية التي يُفرزها محيطه الأسري؛ فإن مهمة المربي الحكيم تتجاوز الدور الفطري والطبيعي الذي تلعبه أجهزة الاستقبال لدى الطفل في التقليد والمحاكاة التلقائيين، إلى استخدام أفضل الأساليب التربوية والتوجيهية القصدية، التي تختصر الطريق في التعليم وترسيخ الخلق المطلوب. وأول هذه الأساليب ألا يشعر الطفل بتناقض بين ما يوجهه إليه المربي وما هو عليه من سلوك فعليّ، ليظلّ مثلاً أعلى يستلهمه باطمئنان، ويقبله في نفسه ويكون قدوة حقيقية يسعى الطفل لتمثلها والاقتداء بها.

www.mtenback.com

ثم إن على المربي أن يكون هيِّنًا سهلاً لَيِّنًا لا معنفًا قاسيًا، يتلقى عنه الناس المعرفة بعفوية وتتحول إلى سلوك يقوم به المربى باقتناع ورضًا لا برهبة وخضوع. ويتلاحم عمله بشخصيته، فنأمن بذلك من أي تحول مستقبلي غير متوقع في الأخلاق والسلوك.

ولا ننسى أن يُرَسَّخ خلق الكتمان بأطُرِه العامة وفوائده، بقصص وأخبار تنسجم ومداركَ الطفل وطرق تقبله وإعجابه، وأن تروى له أحاديث وأقاصيص مؤيدة، ترتبط بمثله الأعلى في شخص النبي عليه السلام وأصحابه الكرام. فإن سيرة النبي ﷺ وأخبار أصحابه ملأى بصور لا تنضب ونماذج لا يخبو بريقها في شتى مجالات السمو والكمال الإنساني، وإذا تحقق في ضمير الطفل صورة المثل الأعلى المحبب إلى قلبه، وفي واقع تطبيقي يعيشه والداه، وتمثلت في خياله القصص الموجهة المفيدة؛ ضُمِن بناء صحيحٌ لمبدأ الكتمان وسلوكه العملي في نشأة الطفل. وهذا ما يختصر، كما أسلفنا، تجاربَ وخبراتٍ ستواجهه بها الحياة في السنوات القادمة، فيلقاها بنضج ووعي وجدارة.

ولا يغيب عن الذهن أن هذه التنشئة يجب أن يرفدها ويواكبها، في وقت قريب، توجيهات تربوية وأخلاق تغرسها المدرسة وتبنيها، فتكون مصدرًا آخر جديدًا بعد الأبوين. ويجب أن يتم ذلك بتنسيق كامل وتبادل للمعلومات مع الأسرة.

ولا يُجهل أن كتمان السر (وما يمكن أن يعد سرًا) لا يمكن أن يُلقى على شكل مبادئ تجريدية وأفكار مباشرة، لأن هذه ربما آذت في البناء النفسي الطبيعي للطفل، فضلاً عن عدم جدواها له، بل يُشرح له أهمية الكتمان في أمثلة نظرية وتطبيقات عملية، ويُبيَّن له جوانب الكتمان الإيجابية والسلبية وأنواعها، في مستوى لا يرتفع عن إدراكه وتصوره ولا يبتعد به عن واقعه ومحيطه.

www.mtenback.com

ولا تقتصر التربية على التخلق بفضائل الكتمان، على الأجيال الناشئة، بل دأب العقلاء والحكماء أن يوجهوا سائر من حولهم لاكتساب هذا الخلق وتوظيفه في مجالاته المطلوبة.

وأول فضائل الكتمان وموضوعاته، التوجيه إلى تطهير الباطن بالجهد المبذول نفسه لتحسين الظاهر، كما قال أبو حنيفة في وصيته لتلميذه أبي يوسف: «..كن لله تعالى في سرِّك كما أنت له في علانيتك، ولا يصلح أمرُ العالِم إلا بأن يجعل سرّه كعلانيته»[٣٢٠]. ولا يؤثر في الناس مثلُ النموذج الصادق، الذي يلتقي كلامه وفعله على خط واحد. قال عبد الواحد بن زيد: كان الحسنُ إذا أمر بشيء كان من أعمل الناس به، وإذا نهى عن شيء كان من أترك الناس له، ولم أر أحدًا قطّ أشبه سريرة بعلانية منه. [٣٢١]

وقد تقتضي حادثة عملية توجيهًا أخلاقيًا مباشرًا. فقد سمع الأحنف رجلاً يُطري يزيد عند معاوية فلما خرج من عنده اسخنفر[٣٢٢] في ذمهما، فقال له الأحنف: مَهْ؛ فإن ذا الوجهين لا يكون عند الله وجيهًا[٣٢٣].

وقد يأتي التوجيه نظريًا وعظيًا، في إطار عام لا يتعلق بحادثة مخصوصة ولا بشخصٍ بعينه. قال بعض الحكماء واعظًا: لا يكوننّ منكم المحدث لا يُنْصَت له، ولا الداخلُ في سرّ اثنين لم يُدْخلاه، ولا الآتي الدعوة لم يُدْعَ إليها[٣٢٤].

---

[٣٢٠] الشرباصي، أحمد: الأئمة الأربعة، القاهرة، دار الهلال، بلا تاريخ، ص ٤٧.

[٣٢١] الغزالي: إحياء علوم الدين، ج ٤ ص ٥٦٥.

[٣٢٢] اسخنفر الرجل في منطقه: مضى ولم يتلبّث.

[٣٢٣] الجاحظ: البيان والتبيين، ج ٢ ص ١٤٩.

[٣٢٤] الجاحظ: البيان والتبيين، ج ٢ ص ١١٥.

www.mtenback.com

وأحيانًا يكون التوجيه من سلطان قاهر لفرد بعينه، فيتلقى ذلك الفرد درسًا لا يُنسى! يروى أن رجلاً قال لعبد الملك بن مروان: إني أريد أن أُسِرّ إليك شيئًا، فقال عبد الملك لأصحابه: إذا شئتم. فنهضوا، فأراد الرجل الكلام، فقال له عبد الملك: قِف لا تمدحني. فأنا أعلم بنفسي منك، ولا تكذبني، فإنه لا رأي لكذوب، ولا تغتب عندي أحدًا، فقال الرجل: يا أمير المؤمنين، أفتأذن لي في الانصراف؟ قال: إذا شئت[٣٢٥].

ومن الأمثلة التربوية الرفيعة، التي نقلها العرب في أخبارهم، ما ذكره الوليد بن عتبة أنه قال لأبيه: إن أمير المؤمنين أسرّ إليّ حديثًا ولا أراه يطوي عنك ما يبسطه لغيرك، أفلا أحدثك به؟ قال: لا يا بني إنه من كتم سره كان الخيار له، ومن أفشاه كان الخيار عليه. قال: قلت وإن هذا ليجري بين الرجل وأبيه؟ قال: لا ولكني أكره أن تذلل لسانك بأحاديث السرّ. فحدثت به معاوية فقال: يا وليد، أعتقك أخي من رقّ الخَطَأ[٣٢٦].

ولم يَفُتِ العرب أن يقدروا الكتمان حقه، ويعرفوا منزلته بين مجمل أخلاق الإنسان ومفردات شخصيته، وأن يحدّدوا موقعه فيها، معتبرين إياه عنصرًا مهمًا في الشخصية السوية المتكاملة. يروى أن عبد الملك بن مروان ذكر الأشدق بعد أن قتله، فقال: كان والله ذا طيٍّ لسرّه، نموما بإعطاء ماله، فارغ القلب بفهم من حدّثه، مشغول القلب بمعرفة ما أشكل عليه[٣٢٧].

---

[٣٢٥] المبرّد: الكامل، ج ١ ص ٦٩.

[٣٢٦] ابن قتيبة: عيون الأخبار، ج ١ ص ٤٠.

[٣٢٧] التوحيدي: البصائر والذخائر، ج ٧ ص ٨٠.

www.mtenback.com

وقرّر بعضهم أن فضيلة الستر وخُلق الكتمان لا يتأتى للمرء التخلق بهما بعد سن معينة! وإذا لم يتخلق بهما قبل ذلك العمر، فقد فاته حظه، وباء بالخسران المبين. قال الشاعر[٣٢٨]:

إِذَا المَرْءُ جَازَ الأَرْبَعِيْنَ وَلَمْ يَكُنْ ... لَهُ دُونَ مَا يَأْتِي حَيَاءٌ وَلا سِتْرُ

فَدَعْهُ وَلا تَنْفَسْ عَلَيْهِ الَّذِي أَتَى ... وَلَوْ جَرَّ أَرْسَانَ الحَيَاةِ لَهُ الدَّهْرُ

من الواضح أن الشاعر في البيتين السابقين قد ربط بين الاستتار والمروءة التي هي صون الإنسان لشرفه وكرامته. وهذه مسألة مهمة، فقد أفرد علماء الأخلاق والتربية أبوابًا في تصنيفاتهم، بينوا فيها دور المجتمع بآدابه العامة في إلزام الفرد بالتصوّن والتستّر، ولم يروا في التزام الفرد بالستر الظاهر نفاقًا وكذبًا - بالضرورة - بل إنّ من أظهر السوء فهو المتهتك، وهو أعظم عند الله ممّن استتر بستره[٣٢٩]. ويكون الالتزام الظاهر بمثابة تدريب تربوي على الالتزام الصادق في النهاية. كما أوجب العلماء، استنادًا إلى مصالح الشريعة المقررة، سَتْر من استتر وعدم فضحه، لحِكَمٍ مُهمة منها ما ذكرنا في إبقاء المخطئ تحت ضابط تربوي اجتماعي يحثه على ترك ما عليه من عدم الالتزام بالآداب والتشريعات، ويحفظه من الافتضاح على ملأ، لأن الافتضاح هتْكٌ لإنسانيته وزعزعة لكيانه وشخصيته وقفلٌ لباب التوبة دونه.

نختم بحثنا هذا بمثال تربوي رائع يعود بنا إلى عهد النبي ﷺ في تربيته لأصحابه على كتمان السر، وأدائهم لهذه الرسالة التربوية لمن وليهم ونليه، بقصة تربوية نادرة في

---

[٣٢٨] الجاحظ: البيان والتبيين، ج ٤ ص ٦.

[٣٢٩] المحاسبي: الرعاية لحقوق الله، ص ٢٧٠، وراجع في المصدر نفسه باب عمل السرّ من ص ٢٦٦ إلى ص٢٧٠، وباب الغرة بطول ستر الله من ص ٤٧٢ إلى ص ٢٧٤، وراجع في: المقدسي: الآداب الشرعية والمِنَح المرعية، باب لا يهجر من يستتر بالمعصية، ج ١ من ص ٢٦٦ إلى ص ٢٧٠.

www.mtenback.com

التاريخ العربي الإسلامي تصلح نموذجًا لا يبلى، وتوجيهًا عاليًا لإحدى وظائف الكتمان في البناء التربوي والأخلاقي لدى الإنسان.

الأول ما رواه الإمام مسلم عن أنس رضي الله عنه، قال: أتى عليّ رسول الله ﷺ وأنا ألعب مع الغلمان فسلّم علينا فبعثني في حاجة فأبطأتُ على أمي فلما جئتُ قالت: ما حبسك؟ فقلت: بعثني رسول الله ﷺ لحاجة، قالت: ما حاجته؟ قلت: إنها سرّ. قالت: لا تخبرنّ بسرّ رسول الله ﷺ أحدًا. قال أنس: واللهِ لو حدّثتُ به أحدًا لحدّثتك به يا ثابت؟ (٣٣٠)

والثاني: ما روي أن مسلمة بن عبد الملك حاصر حصنًا، وطال الحصار، فرأى مَسْلَمَةَ نقبًا في جدار الحصن، فندب جنده إلى دخوله، فتهيبوا، وخرج رجل مقنّع من عُرْض الجيش لم يعرفه أحد، فدخل النقب وفتح باب الحصن ودخله المسلمون. فأحبّ مسلمة أن يعرف الرجل، فنادى في جنوده: من صاحب النقب؟ فلم يخرج إليه أحد. فقال: عزمتُ عليه أنْ يأتيني في أي ساعة شاء من ليل أو نهار. وأوصى حاجبه أن يُدخل عليه كل من يأتيه. فجاءه رجل وقال: استأذن لي على الأمير. فقال له: أنت صاحب النقب؟ قال: أنا أدلكم عليه. فدخل وسلم وقال: أيها الأمير، إن صاحب النقب يشترط عليكم ثلاثًا: ألاّ تكتبوا اسمه في صحيفة إلى الخليفة، وألا تأمروا له بعطاء، وألا تسألوه عن اسمه. قال: له ذلك، فمن هو؟ قال: أنا هو. وانصرف. فكان مسلمة بعد ذلك لا يصلي صلاة إلا قال: اللهم اجعلني مع صاحب النقب (٣٣١).

---

(٣٣٠) النووي، يحيى بن شرف، محيي الدين أبو زكريا: رياض الصالحين من كلام سيد المرسلين بتعليق: مصطفى محمد عمارة، حمص، بيروت، دار الحديث، بلا تاريخ: باب حفظ السر، ص٣٠٤.

(٣٣١) نقلاً عن: البيانوني، أحمد عز الدين: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، حلب، مكتبة الهدى، ط١، (١٣٩٣هـ/١٩٧٣م).

www.mtenback.com

موقع الدكتور مرزوق بن تنباك
www.mtenback.com

www.mtenback.com

الفهارس

موقع الدكتور مصطفى بن تنباك
www.mtenback.com

www.mtenback.com

موقع الدكتور مرزوق بن تنباك
www.mtenback.com

www.mtenback.com

فهرس الآيات القرآنية

السورة	الآيـــة	رقمها	الصفحة
البقرة	﴿يُخادِعُونَ اللّهَ وَالَّذينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ... الآية﴾	٩	١٣
	﴿وَلا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ... الآية﴾	٤٢	٥١
	﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهَادَةً عِنْدَهُ مِنَ اللّهِ.. الآية﴾	١٤٠	٨
	﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ... الآية﴾	١٥٩	٥٠
	﴿أَوْ أَكْنَنْتُمْ فِي أَنْفُسِكُمْ... الآية﴾	٢٣٥	٩، ١٢
	﴿إِنْ تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ... الآية﴾	٢٧١	٣٠
	﴿وَلا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ... الآية﴾	٢٨٣	٤٩
آل عمران	﴿وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ... الآية﴾	١٣٤	٣٣
	﴿وَإِذْ أَخَذَ اللّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ... الآية﴾	١٨٧	٥٠
يوسف	﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ... الآية﴾	٤-٥	٣٢
يونس	﴿وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ... الآية﴾	٥٤	٧
النحل	﴿يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ... الآية﴾	٢٣	٧
	﴿إِلاَّ مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالإِيمَانِ... الآية﴾	١٠٦	٣٢
النور	﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي... الآية﴾	١٩	٨٤
	﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا.. الآية﴾	٣٠-٣١	٢٩
الأحزاب	﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ... الآية﴾	٥٩	٢٩
الصافات	﴿كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَكْنُونٌ... الآية﴾	٤٩	٩
غافر	﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ... الآية﴾	٢٨	٣٢
فصلت	﴿وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ... الآية﴾	٢٢	٨، ٧٥
الحجرات	﴿وَلا تَجَسَّسُوا... الآية﴾	١٢	٣٠
الحديد	﴿كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ... الآية﴾	٢٠	٩

www.mtenback.com

السورة	الآيـــــة	رقمها	الصفحة
التحريم	﴿وَإِذْ أَسَرَّ النَّبِيُّ إِلَى بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا... الآية﴾	٣	٧
الملك	﴿وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ ... الآية﴾	١٣	١٢
المطففين	﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ... الآية﴾	١٥	٩
الضحى	﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ... الآية﴾	١١	٣٢

موقع الدكتور مرزوق بن تنباك
www.mtenback.com

www.mtenback.com

فهرس الأحاديث

الحديث	الصفحة
«استعينوا على إنجاح حوائجكم بالكتمان، فإن كل ذي نعمة محسود»	٣٣
«أتى عليّ رسول الله ﷺ وأنا ألعب مع الغلمان»	٩٥
«إذا عملت سيئة فأحدث عندها توبة، السرّ بالسر والعلانية بالعلانية»	٧٣
«أُمرنا أن نكلم الناس على قدر عقولهم»	٣٥
«إن أخوف ما أخاف على أمتي كل منافق عليم اللسان»	٨٦
«إنّا لنبشّ في وجوه قومٍ، وقلوبنا تلعنهم»	٢٦
«إنك إن اتبعت عورات الناس أفسدتهم أو كدت أن تفسدهم»	٤٨
«إن الله جميل يحب الجمال»	٨
«إن الله حييّ ستِير»	٨
«إن الله يحب الجمال»	٤٣
«إن الله يغفر لعبده ما لم يقع الحجاب...»	٨
«إن من أشرّ الناس عند الله منزلة يوم القيامة الرجل يُفضي إلى امرأته....»	٤٠
«البر حسن الخلق، والإثم ما حاك في صدرك وكرهت أن يطلع عليه الناس»	٧٣
«... تلك عاجل بشرى المؤمن»	٦٥
«ثلاثة يحبهم الله...»	٣١
«دعوة المرء المسلم لأخيه بظهر الغيب مستجابة، عند رأسه مَلك موكّل...»	٣٠
«كل أمتي معافى إلا المجاهرين»	٨١
«لا يستر عبدٌ عبداً في الدنيا إلا ستره الله في الآخرة»	٢٥، ٢٩
«لو أن رجلاً اطلع عليك بغير إذن فحذفته بحصاه ففقأت عينه....»	٤٧
«ما من امرأة تضع ثيابها في غير بيت زوجها إلا هتكت الستر....»	٤٧
«المجالس بالأمانة إلا ثلاثة مجالس»	٤٩

www.mtenback.com

الحديث	الصفحة
«مَن أوتي معروفاً فليذكره، فمن ذكره فقد شكره، ومن كتمه فقد كفره»	٥٠
«مَن تتبع عورة أخيه المسلم تتبع الله عورته، ومن تتبع الله عورته...»	٨٤
«من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه»	٣٩
«من رأى عورةً فسترها كمن أحيا موؤودة»	٢٦
«من سئل عن علم فكتمه ألجمه الله بلجام من نار يوم القيامة»	٥٠
«من كتم غالاً فإنه مثله»	٥٠
«من نظر في كتاب أخيه بغير إذنه فكأنما ينظر في النار»	٣٠
«... ورجلٌ تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه...»	٣٠
«يُدنى المؤمن يوم القيامة من ربه عزّ وجل حتى يضع عليه كنفه...»	٧٥

موقع الدكتور مرزوق بن تنباك
www.mtenback.com

فهرس الأشعار

أول البيت	القافية	اسم الشاعر	العدد	الصفحة
		ـ ء ـ		
ولا تُرِ	بلاءُ	الإمام الشافعي	١	٣٧
		ـ ب ـ		
ولا تخبر	حجابا	–	٢	٢٤
وجدَ	متعبا	ابن زهيمة المدني	٤	٤٠
ولا تفشينْ	يُعصبُ	–	١	٥٩
مَن كان	كذوبُ	أبو العتاهية	٢	١٦
والسرّ	ينشَبُ	–	٢	٤٧
فأين الذي	الترائبِ	أبو العلاء المعري	١	٦٣
لا تظهرنّ	عجيبِ	–	٢	٤١
ولا أكتم	على قلبي	–	٢	٥٥
احفظ	مذهبِ	محمد بن عبدالباقي البزّار	٢	٣٧
		ـ ت ـ		
لّما عفوتُ	العداوات	الإمام الشافعي	٣	٣٣
		ـ ث ـ		
إذا المرءُ	حديثا	–	١	٧٠
		ـ ح ـ		
فَحُ	تبوحا	–	١	٦٦
ألم ترَ	صحيحا	–	٢	٢٣

www.mtenback.com

أول البيت	القافية	اسم الشاعر	العدد	الصفحة
لقد قال	صالحُ	الثعلبي	٣	١٣
وإني لأطوي	الجوانحِ	–	١	٥٨
		ـــ د ـــ		
أدركتُ	حشدوا	(أنشد) أبو مسلم الخراساني	١	٨٨
إن الليالي	تلدُ	–	١	١٢
أبكي	رقدوا	بشار بن برد	٢	٨٠
إن الكريم	مجهودُ	حمّاد عجرد	١	٣٨
كتمتُ	الخدّ	–	٢	١٥
أجدِرْ	وَقودِ	أبو تمام	١	٦٤
أكتم حديثك	اليدِ	أبو العلاء المعري	١	٥٨
وإذا أراد	حسودِ	أبو تمام	١	٦٠
		ـــ ر ـــ		
صُنِ السرَّ	الحذَرْ	ابن نباتة السعدي	٢	٤٦
وما السرُّ	النَّشرا	بشار بن برد	٢	١٨
أقبل	فجُرا	الإمام الشافعي	٢	٢٧
لا تفش	أسرارا	–	٢	٧١
إذا المرءُ	سِتْرُ	–	٢	٩٤
أمِتْ	سرّ	–	٢	٧١
احذر	مرّة	–	٢	٥٧
أمنّي	أكثر	العباس بن الأحنف	٢	٦٧
ولو شاء	حُمْرُ	ابن عبدل	٣	٥٣

www.mtenback.com

أول البيت	القافية	اسم الشاعر	العدد	الصفحة
ألم تر	استغفرُ	–	٢	٥٢
لا تتركنْ	تصغّرُها	عروة بن أذينة الليثي	٤	٥٤
لعمري	السرائرُ	–	٣	٣٩
زعمت	غدّارُ	جميل بثينة	٣	٢٧
ولو قدرَتْ	الخبرِ	–	٢	٤٤
والسرُّ	صِرارِ	أبو العلاء المعري	١	٤٥
إليك غَدتْ	فأداري	أبو نواس	٢	٦٩
	ـــ س ـــ			
ومستودعي	الحسُّ	–	٢	٦٧
لا تودِعْ	والخرَسِ	أبو العلاء المعري	١	٦٠
	ـــ ع ـــ			
لا تُذِعْ	مذيعْ	صالح بن عبد القدوس	٢	٦١
أتى	أروَعُ	كثير بن عبد الرحمن	٢	٧٢
لا تُفْشِ	يستودِعُ	–	٢	٧٠
فلا يسمعنّ	شائعِ	جميل بن معمر	١	١٨
إذا أنت	أضيعُ	–	١	٤٦
أؤاخي	جماعُها	مسكين الدارمي	٢	٦٨
لساني	مذيعُ	–	٢	٧٦
وتجلّدي	أتضعضعُ	(أنشد) معاوية	١	٣٧
	ـــ ف ـــ			
أشكو	الخليفَهْ	سليمان بن أبي جعفر	٣	١٦
ولا خير	بالجفا	الإمام الشافعي	٢	٨٣

www.mtenback.com

أول البيت	القافية	اسم الشاعر	العدد	الصفحة
انظر	تلافي	أبو المحاسن محمد بن نصر	٢	٣٨
وأسرارُ	خوافي	أبو العلاء المعري	١	٦٢
وسرُّك	الخفي	الصلتان العبدي	١	٦٣
وسرُّك	توافي	أبو العلاء المعري	١	١٧
		ـ ق ـ		
ولو صاحبٌ	تحرّقُ	–	٢	٧٩
إذا المرء	أحمقُ	الإمام الشافعي	٢	٢٠
إذا ما كتمتُ	حقيقِ	ابن الحاج الدلفيقي	٢	٥٧
		ـ ك ـ		
سيوردني	تبارك	–	٢	٦٤
عليكَ	يحكي	–	٢	٦٢
ولو أراد	هتكه	–	١	٦٤
		ـ ل ـ		
سأكتم	يُبذلُ	الجنيد	٣	١٠
لا يعلم	الفالُ	–	٢	١٢
عليمٌ	باطلُهْ	–	١	٤٢
كريمٌ	جاهلُهْ	كثير بن عبدالرحمن	١	٧١
ولستُ بعبدٍ	بسؤولِ	كعب بن سعد الغنوي	٢	٧٦
		ـ م ـ		
إنّ الكريم	صرَما	–	٢	٨٠
فمن حوى	ظلمه	الإمام الشافعي	٢	٣٥

www.mtenback.com

أول البيت	القافية	اسم الشاعر	العدد	الصفحة
وقد حدثتْ	نَمَّامَهْ	أبو العلاء المعري	١	٦٣
لا يكتم	مكتومُ	–	١	٧٠
لعلّ له	مُليمُ	–	١	٨٢
ولست محدّثاً	هموم	–	١	٥٩
أجود	يتألمُ	الإمام الشافعي	٣	٣٨
إذا ما ضاق	تلوم	–	٢	٨١
أتظهر	كاتمُهْ	ابن ميّادة	٢	٤٤
قضى	غريمُها	كثير بن عبدالرحمن	١	٦٥
في انقباض	الكرمِ	ابن كناسة	٢	٦٨
وكائن	التكلم	–	١	٤١
ختمتُ	بالخاتم	–	٢	٧٠
وأَدْن	كاتمِ	بشار بن برد	١	٨٦
ـــ ن ـــ				
إذا ما السرُّ	الثنا	–	٢	٧٤
مايريد	عنّا	–	٣	٢١
فإن تكُ	أخونها	البعيث	٢	٧٠
إذا جاوز	قمينُ	جميل بن معمر	١	١٨
وإن ضيّع	آمين	يحيى بن الخطيم	١	٧١
برح	الإخوانِ	–	٢	١٥
ـــ هـ ـــ				
إني كتمتُ	بِخُفيّه	شمس الدين البدوي	٢	١٥
احذر	بالحلاوَهْ	–	٢	٥٧

www.mtenback.com

أول البيت	القافية	اسم الشاعر	العدد	الصفحة
أعوذ	أذاعوهُ	أبو العلاء المعري	١	٧٩
— ي —				
فسرِّي	نهارِيَ	(أنشد) عمر بن عبدالعزيز	١	٧٤

موقع الدكتور مرزوق بن تنباك
www.mtenback.com

www.mtenback.com

فهرس الأمثال

المثل	الصفحة
«اجعله في وعاء غير سرب»	٦٦
«استر عورة أخيك ما يعلم فيك»	٢٦
«أخبرتـــهُ بعُجري وبُجري»	٦٦
«أملك الناس لنفسه أكتمهم لسره»	٢٣
«رب سامعٍ خبري لم يسمع عُذري»	٨٢
«صاحب سر طنته في غربه»	٦٢
«طَبِّلَ بسرِّي»	٥٦
«قبّح الله سراً عند المعيديّ»	٥٥
«لا تبد سرّك إبداء السقاء ماءه»	٦٦
«لا تفش سِرّك إلى أمه، ولا تَبُلْ على أكمة»	٥٩
«لا تُنكِح خاطب سِرّك»	٦١
«الليل أخفى للويل»	٤٥
«ما استتر مَن قَاد الجمل»	١٧
«مَن سَلِمت سريرته سلمت علانيته»	٧٤
«من كتم سره كان الخيار إليه ومَن أفشاه كان الخيار عليه»	٩٣

www.mtenback.com

موقع الدكتور مرزوق بن تنباك
www.mtenback.com

www.mtenback.com

المصادر والمراجع

القرآن الكريم.

الأبشيهي، محمد بن أحمد، أبو الفتح:

المستطْرَف في كل فن مُستظرَف. القاهرة، المكتبة التجارية الكبرى، ط٢، ١٣٧٢هـ/١٩٥٣م.

ابن الأثير، علي بن محمد، أبو الحسن الجزري:

أُسْد الغابة في معرفة الصحابة، تحقيق وتعليق: محمد البنا ومحمد عاشور ومحمود فايد، القاهرة، دار الشعب، بلا تاريخ.

ابن الأثير، المبارك بن محمد الجزري، مجد الدين أبو السعادات:

النهاية في غريب الحديث والأثر، تحقيق: طاهر الراوي ومحمود الطناحي، القاهرة، دار إحياء الكتب العربية، عيسى البابي الحلبي وشركاه، ط١، ١٣٨٣هـ/١٩٦٣م.

إسماعيل بن القاسم، أبو العتاهية:

أبو العتاهية، أشعاره وأخباره، تحقيق: د. شكري فيصل، دمشق، مطبعة جامعة دمشق، ١٣٨٤هـ/١٩٦٥م.

الأعلم الشنتمري:

شعر زهير بن أبي سُلمى، تحقيق: د. فخر الدين قباوة، حلب، دار القلم العربي، ط٢، ١٣٩٣هـ/١٩٧٣م.

بشار بن برد، أبو معاذ:

ديوان شعر بشار بن برد، جمع وتحقيق: السيد بدر الدين العلوي، بيروت، دار الثقافة، بلا تاريخ.

www.mtenback.com

البيانوني، أحمد عز الدين:

- الكفر والمكفرات، حلب، مكتبة الهدى، ط١، ٣٩٥هـ/١٩٧٥م.
- الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، حلب، مكتبة الهدى، ط١، ١٣٩٣م/١٩٧٣م.

البكري، أبو عبيد:

فصل المقال في شرح كتاب الأمثال، تحقيق: د. إحسان عباس د. عبد المجيد عابدين، بيروت، دار الأمانة، مؤسسة الرسالة، ط١، ١٣٩١هـ/١٩٧١م.

بيضون، لبيب:

تصنيف نهج البلاغة، دمشق، منشورات مكتبة أسامة كرم، ط١، بلا تاريخ.

البيهقي، إبراهيم بن محمد:

المحاسن والمساوئ، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، القاهرة، مكتبة نهضة مصر ومطبعتها.

الترمذي، محمد بن عيسى، أبو عيسى:

سنن الترمذي، تعليق: عزت عبيد الدعّاس، حمص، مكتبة دار الدعوة، ط١، ١٣٨٥هـ/١٩٦٥م.

ابن تنباك، مرزوق بن صنيتان:

السرُّ كما صوره تراثنا العربي.

التوحيدي، أبو حيان:

- البصائر والذخائر، تحقيق: د. وداد القاضي، بيروت، دار صادر، ط١، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م.

www.mtenback.com

- المقابسات، تحقيق: حسن السندوبي، القاهرة، دار الكتاب الإسلامي، ط٢، ١٤١٣هـ/١٩٩٢م.

تيمور، أحمد:

علي بن أبي طالب، شعره وحِكَمُه، القاهرة، لجنة نشر المؤلفات التيمورية، ط١، ١٣٧٨هـ/١٩٥٨م.

الجاحظ، عمرو بن بحر، أبو عثمان:

- البيان والتبيين، تحقيق: عبد السلام هارون، القاهرة، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، ١٣٦٧هـ/١٩٤٨م.
- الحيوان، تحقيق: عبد السلام هارون، (القاهرة)، مكتبة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، ط١، ١٣٦٢هـ/١٩٤٣م.
- رسائل الجاحظ، شرح وتعليق: عبد أ. مهنا، بيروت، درا الحداثة، ط١، ١٩٨٨م.
- المحاسن والأضداد، تحقيق: فوزي عطوي، بيروت، الشركة اللبنانية للكتاب، ١٩٦٩م.

ابن الجوزي، عبد الرحمن، أبو الفرج:

- أسرار العشاق، إخراج: محمود مهدي إستانبولي، دمشق، دار كرم، بلا تاريخ.
- صيد الخاطر، تحقيق: ناجي الطنطاوي، راجعه وعلّق عليه علي الطنطاوي، جدّة، درا المنارة للنشر والتوزيع، ط٥، ١٤١٢هـ/١٩٩١م.

الجوهري، إسماعيل بن حمّاد:

تاج اللغة وصحاح العربية، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار، مطابع دار الكتاب العربي بمصر، ١٣٧٧هـ.

www.mtenback.com

ابن حجر الهيتمي، شهاب الدين:

الزواجر عن اقتراف الكبائر، بيروت، دار الفكر، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م.

ابن حجّة الحموي، تقي الدين:

- ثمرات الأوراق، تعليق: محمد أبو الفضل إبراهيم، القاهرة، مكتبة الخانجي، ط١، ١٩٧١م.

- ثمرات الأوراق (مع الذيل)، طبعة: المكتبة التجارية الكبرى، بلا تاريخ.

الحريري، القاسم بن علي، أبو محمد:

دُرّة الغوّاص في أوهام الخواص، بغداد، مكتبة المثنى، بلا تاريخ.

الحسني، أحمد بن محمد بن عجيبة:

إيقاظ الهمم في شرح الحكم، دمشق، بيروت، دار الإيمان، ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م.

الحسن بن هانئ، أبو نواس:

ديوان أبي نواس، تحقيق: بدر الدين حاضري، ومحمد حمّادي، بيروت، دار الشرق العربي، ط١، ١٤١٢هـ/١٩٩٢م.

الخزاعي، كثير بن عبد الرحمن، أبو صخر:

ديوان كثيّر عزة، شرح: قدري مايو، بيروت، دار الجيل، ١٤١٦هـ/١٩٩٥م.

خطاب، محمود شيت: دروس في الكتمان من الرسول القائد، بلا عنوان للناشر، وبلا تاريخ.

الخطيب، عبد الله:

صالح بن عبد القدوس البصري، بغداد، دار منشورات البصري، ١٩٦٧م.

www.mtenback.com

درّاز، د. محمد عبد الله:

النبأ العظيم، الكويت، دار القلم، ط٢، ١٣٩٠هـ/١٩٧٠م.

الراغب الأصفهاني، الحسين بن محمد، أبو القاسم:

المفردات في غريب القرآن، تحقيق وضبط: محمد سيد كيلاني، القاهرة، شركة ومكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر، ١٣٨١هـ/١٩٦١م.

الزبيدي: التجريد الصريح:

مختصر صحيح البخاري، تحقيق: د. مصطفى البغا، دمشق، دار العلوم، ط٣، ١٤٠٩هـ/١٩٨٨م.

الزبيدي، السيد محمد مرتضى الحسني:

تاج العروس من جواهر القاموس، الكويت، وزارة الإرشاد والأنباء في الكويت.

السباعي، د. مصطفى:

هكذا علمتني الحياة، القسم الأول، الاجتماعي، ط٢، ١٣٩٢هـ/١٩٧٢م.

السجستاني، سليمان بن الأشعث، أبو داود:

سنن أبي داود بشرح الخطابي، إعداد وتعليق: عزت عبيد الدعاس وعادل السيد، حمص، دار الحديث، ط١، ١٣٩٤هـ/١٩٧٤م.

السمرقندي، نصر بن محمد، أبو الليث:

تنبيه الغافلين في الموعظة بأحاديث سيد الأنبياء والمرسلين، دمشق، الشرك المتحدة للتوزيع، دار أسامة، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م.

www.mtenback.com

الشافعي، محمد بن إدريس:

ديوان الشافعي، جمع وتعليق: محمد عفيف الزعبي، بيروت، دار النور، ١٣٩١هـ/١٩٧١م.

الشرباصي، أحمد:

- الأئمة الأربعة، القاهرة، دار الهلال، بلا تاريخ.

- موسوعة أخلاق القرآن، بيروت، دار الرائد العربي، ط١، ١٤٠١هـ/١٩٨١م.

شلبي، عبد المنعم:

شرح ديوان عنترة بن شداد، القاهرة، المكتبة التجارية الكبرى، بلا تاريخ.

شيخاني، سمير:

من حصاد الفكر العالمي، بيروت، دار الآفاق الجديدة، ط٣، ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م.

الطائي، حبيب بن أوس، أبو تمام:

ديوان أبي تمام بشرح الخطيب التبريزي، تحقيق: محمد عبده عزام، القاهرة، دار المعارف بمصر، ١٩٥١م.

الطنطاوي، علي:

رجال من التاريخ، دمشق، بيروت، المكتبة الأمويّة، ط٢، ١٩٦٨م.

طهماز، عبد الحميد:

العلاّمة المجاهد الشيخ محمد الحامد، دمشق، بيروت، دار القلم، ط١، ١٣٩١هـ/١٩٧١م.

www.mtenback.com

عبد الباقي، محمد فؤاد:

المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، القاهرة، مطابع الشعب، ١٣٧٨هـ.

العبدري، محمد بن علي، أبو المحاسن:

تمثال الأمثال، تحقيق: د. أسعد ذبيان، بيروت، دار المسيرة، ط١، ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م.

العجلوني، إسماعيل بن محمد:

كشف الخفاء ومزيل الإلباس عمّا اشتهر من الأحاديث على ألسنة الناس، تصحيح وتعليق: أحمد القلاش، حلب، مكتبة التراث الإسلامي، بلا تاريخ.

ابن عطاء الله السكندري، أحمد بن محمد، تاج الدين:

الحكم العطائية والمناجاة الإلهيّة، دمشق، المكتبة العربية، بلا تاريخ.

العلايلي، عبد الله:

أين الخطأ؟، بيروت، دار الجديد، ط٢، ١٩٩٢م.

عيسى، عبد القادر:

حقائق عن التصوف، حلب، مطبعة البلاغة، ط٢، ١٣٩٠هـ/١٩٧٠م.

الغزالي، محمد بن محمد، أبو حامد:

إحياء علوم الدين، بيروت، دار الهادي، ط١، ١٤١٢هـ.

قبّش، أحمد:

مجمع الحكم والأمثال في الشعر العربي، دمشق، مطبعة دار العروبة، بلا تاريخ.

www.mtenback.com

ابن قتيبة الدينوري، عبد الله بن مسلم، أبو محمد:

عيون الأخبار، القاهرة، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والطباعة والنشر، بلا تاريخ.

القرطبي، محمد بن أحمد، أبو عبد الله:

الجامع لأحكام القرآن، القاهرة، دار الكاتب العربي، ط٣، ١٣٨٧هـ/١٩٦٧م.

القشيري، عبد الكريم، أبو القاسم:

الرسالة القشيرية في علم التصوف، بيروت، دار أسامة، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م.

الماوردي، علي بن محمد، أبو الحسن:

أدب الدنيا والدين، تحقيق: مصطفى السقا، دار الفكر، بلا تاريخ.

المبرّد، محمد بن يزيد، العباس:

الكامل في اللغة والأدب والنحو والتصريف، تحقيق: زكي مبارك، القاهرة، شركة ومكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر، ط١، ١٣٥٥هـ/١٩٣٦م.

المحاسبي، الحارث بن أسد، أبو عبد الله:

الرعاية لحقوق الله، تحقيق: عبد القادر عطا، بيروت، دار الكتب العلمية، ط٤، بلا تاريخ.

المطر، د. محمد فائز:

قبس من نور محمد ﷺ، دار الكتب العربية، ط٢، ١٣٩٤هـ/١٩٧٤م.

مطر، أحمد:

لافتات، الكويت، مطابع دار القبس، ط١، ١٩٨٤م.

www.mtenback.com

المعرّي، أحمد بن عبد الله، أبو العلاء:

ديوان لزوم ما لا يلزم ممّا يسبق حرف الرويّ، تحرير وشرح: د. كمال اليازجي، بيروت، دار الجيل، ط١، ١٤١٢هـ/١٩٩٢م.

المقدسي، محمد بن مفلح، شمس الدين:

الآداب الشرعية والمنح المرعيّة، بيروت، دار العلم للجميع، ١٩٧٢م.

المنذري، عبد العظيم بن عبد القوي، زكي الدين:

مختصر صحيح مسلم، تحقيق: مصطفى البنا، دمشق، مطبعة الصباح، بلا تاريخ.

ابن منظور، محمد بن مكرم:

لسان العرب، بيروت، دار صادر، دار بيروت، بلا تاريخ.

الميداني، أحمد بن محمد، أبو الفضل:

مجمع الأمثال، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، القاهرة، المكتبة التجارية الكبرى، ط٢، ١٣٧٩هـ/١٩٥٩م.

الميداني، عبد الرحمن حسن حبنكه:

الأخلاق الإسلامية وأسسها، دمشق، بيروت، دار القلم، ط١، ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م.

النسائي، أحمد بن شعيب، أبو عبد الرحمن:

سنن النسائي، حمص، المكتبة الإسلامية، ط١، ١٣٨٨هـ/١٩٦٨م.

النشاشيبي، محمد إسعاف:

نُقْل الأديب، بيروت، دار ريحاني للطباعة والنشر، بلا تاريخ.

نصّار، حسين:

ديوان جميل، مكتبة مصر، بلا تاريخ.

www.mtenback.com

النووي، يحيى بن شرف، محيي الدين أبو زكريا:

رياض الصالحين من كلام سيد المرسلين، بتعليق: مصطفى محمد عمّارة، حمص، بيروت، دار الحديث.

الوشّاء، محمد بن إسحق:

الموشّى أو الظرف والظرفاء، دار صادر، دار بيروت، بيروت، ١٣٨٥هـ/١٩٦٥م.

الوطواط، محمد بن إبراهيم الكتبي:

غُرر الخصائص وعُرَر النقائص الفاضحة، بيروت، دار صعب، بلا تاريخ.

وِنسِنْك، أبي:

المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوي، ليدن، مكتبة ليدن، ١٩٣٦م، طبعة مصوّرة عنها.

موقع الدكتور مرزوق بن تنباك
www.mtenback.com

www.mtenback.com